شعر

مرثية للعمر الجميل
كائنات مملكة الليل
أشجار الأسمنت

أحمد عبد المعطي حجازي



مرثية للعمر الجميل

كائنات مملكة الليل

أشجار الأسمنت

حجازى، أحمد عبد المعطى.

مرثية للعمر الجميل/ كائنات مملكة الليل: أشجار الأسمنت/ أحمد عبد المعطى حجازى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٣٢٨ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك ٣ ٨٠٣ ٠٠١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ شعر الرثاء.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٨٦٤/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -803 - 3

ديوى ٨١١,٠٣

مرثية للعمر الجميل

كائنات مملكة الليل

أشجار الأسمنت

أحمد عبد المعطي حجازي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

الإخـراج الفـنى: مـادلين أيوب فـرج

تصـميم الغـلاف: ممدوح القصيفى

مَرثيَةٌ للعُمرِ الجميلْ

صدرت الطبعة الأولى عن «دار العودة» بيروت. عام ١٩٧٢
الطبعة السادسة. القاهرة ٢٠٠٣

مسافر أبداً

أعبر أرضَ الشارع المزحوم لا توقفنى العلامة

أثير حيثما ذهبت الحُبَّ، والبغض»،

وأكره السآمة!

أدفع رأسى ثمنًا لكِلّمةٍ أقولها

لضحكةٍ أُطلقها

أو ابتسامة

أسافر الليلةَ فجأةً،

ولا أرجو السلامة!

أعبر تحت الناطحات، تحت ظل المركبات
بما تَبقَّى من فؤادى من ثبات
وفى خيالى من وسامة
أمسح هذه المناظر المقامة
حتى يلُوحَ مأمنى فى القاعِ،
رَطبًا متكسِّرَ الشعاع
ويصهلَ الجوادُ عالكا لجامه!

أعبر أرض المدن الشماء، بادىَ الجهامة
أطفو على ليلاتها الزرقاء أشدو فى الطريق
أمنح قلبى كل يوم لفتاة،
أو صديق
لكننى أأبى الإقامة!

تغريننى بالحب يا صديقتى!
فمن تُرى يضمن لى موتًا بلا ندامة
ومن تُرى
يضمن لى فى هذه المدينة.. القيامة!

١٩٦٨

البحر والبركان

«قاتل الجنود المصريون فى جزيرة شدوان فى البحر الأحمر ببسالة مذهلة!»

شدوانُ!

صوتُ البحر يأتى من بعيدٍ،

وارتعاشاتُ النجوم على المياه

يتواثب اللمعان فى نغم يشبُّ ويختفى

ويرف طير لا نراه

يتوالد الزبد المفضَض فى سباق المدِّ،

ثم تخور فورتهُ حسيرة

ويُتم مصباح الفنارة دورة أخرى،

ويبدأ من جديد

وصفيرُ غليون يلوِّح من بعيدٍ للجزيرة

شدوانْ

مدينةٌ طفت على وجه الزمن

سكنتها وحدى

وهأنا أدفع من دمى الثمن

بينى وبينك كل هذا الليل يا أمى،

وآمادُ الظهيرة

وضجيج آلات الرحيل

وتقاطعُ الطرقاتِ، لا ندرى إلى أين المسيرة

بينى وبينك هذه المدن الكبيرة

وتفرُّسُ الأغراب فينا قبل أن يلقوا لنا إذن

الدخول

بينى وبينك كل هذا الملحِ أيتها الحقول

ووجوهُ أبناء القرى الأخرى، وأبناءُ القتيل

يمشون فى آثارنا

متعممين بثوبه الدامى ونظرته الأخيرة

بينى وبينك كل هذا الحب ياأمى.

وكل دم العشيرة

كل الذى من أجله لذنا بسِتر الخوف أعوامًا مريرةً

كل الذى ينهار فى نفسى،

فأدرك بعد ما طال الزمان

أنى استطعت النوم، أبعدَ ما أكون عن الأمان!

شدوانٌ!

منفى، ويندقيتى وطن!

شدوانُ!

منذ متى نفضتِ البحرَ عن صحرائك الغرقى،

وآويتِ السفن!

ومن الذى أعطاك هذا الاسمَ.. ملاحٌ شريد

أم خارجٌ حمل السلاح على المدن؟!

إنى أمد الطرف لا ألقى سواى،

ولا أشمُّ سوى الرياح

بِكرٌ سماءُ الفجر، صوتُ البحر، أنفاسُ المياه

والرمل مبتلٌّ، وريحُ البحر مغسولٌ،

وأضواءُ الفنارة

بكرٌ، كأن الله منذ هنيهة خلق الحياة

بِكر أنا!

أمشى على أرض البكارة

أرضٌ أنا فيها مواطنها السعيد

ومليكها الشاكى السلاح

بِكرٌ مواويل الجنود

تنساب من أحلامهم فى الفجر

تصبح أوجهًا وقرىً صغيرة

وأليفةٌ أشياؤهم فى الرمل نائمةٌ نثيرة

كانت بنادقهم معلقةً على أكتافهم

وهمو على الخلجان يصطادون فى ألق الصباح

وهمو عراة، يغسلون ثيابهم

ويطاردون عقارب الشطآن فى شمس الظهيرة

بِكرٌ صرير الكائنات وشدوُها الجياش فى الصمت

الفريد

تتفتح الأصداف هذا الوقتَ،

تلقى نفسها فوق الرمال

ينهلُّ نور البدر أمطارًا غزيرة

ويصيح صوت بالرجال

يحمرُّ فى فم حارس طرفُ اللفافة،

يلمع النصل الحديد

فى بندقيته، ويلمع جسمُ وحشِ القرشِ فى البقع

المنيرة!

شدوانْ!

هى الوطن!

...

يأتى المساء محمَّلاً بروائح الذكرى ونشوتها القريرة

بوجوهنا الأولى،

ونحن نغيب فى الحلمِ القديم

ونظل ننشق عطره، ونَغُطّ فى أعماقه الخضر الوثيرة!

حتى تعود لنا محبتنا لأنفسنا، ويضنينا تعطشنا الخطر

يأتى المساء! فتمتم الآفاق من حول الجزيرة

تتكاثف الظلمات فوق البحر ضاربةً على الأرض الحصار

وكأنما كان النهار وأمنهُ وهمًا من الأوهام،

وانقشع النهار

تتوغل الجزر البعيدة فى الظلام وترحل السفن الأُخَر

ونظل نحن، كأنما جئنا ليكشف كل إنسان مصيره

يأتى المساء! فيقطع الكلماتِ فيما بيننا

ويلف أوجهَنا ظلامُ الليل، يوقد فى السريرة

مصباحها الباكى فنغرق فى توحدنا الحميم

يأتى المساء! فيستحيل البحر وحشًا هائجًا،

تتقذَّف الأمواجُ فوق وجوهنا ملحًا وعشبًا ميتًا

وتشدنا هُوجُ الرياح،

وتمعن الأصوات بعدًا والنجوم

يأتى المساء محملاً بمخاوف الليل العدائى البهيم

نترقَّب الخطر المداهم من وراء الليلِ،

نلمس فى الظلام رفيفه المنسل، فوق جلودنا

يتشبث الدم بالتراب، وتُنشِبُ الأعضاء صورتها

على صدر الحفر

يتزاوج الدمُ والوعورة

يتزاوج الدمُ والخطر!

شدوانُ!

البحرُ والبركان

والنجمُ بالنجمِ اقترن!

شدوان لا تُفضى لأرض غيرها،

والليل لا يفضى سوى لليلِ،

والأعداءُ للأعداءِ، والبحرُ المحيطُ إلى سواه

فاحفر على أرض الجزيرة بيت أملكَ،

واحتمل ضرب الغزاة

أو لذ بأذيال الفرار فلن تصير إلى قرار

ستظل طول العمر تبحث فى النهار عن الظلامِ،

وفى الظلام عن النهار

عن مخبأ تخفى به آثار وجهكَ،

لا ترى إلا وحوش القرش والجثثَ الغفيرة

وتظل تُنكر أنت نفسك خائفًا ممن تحبُّ،

فأى محبوب تلوذ له بأذيال الفرار!

وهل عرفت الحب حقًا؟

ما الذى صنعته أيدينا لنُعطَى أمهات

وقرى يعبث بها الطغاة؟

لا!

نحن لم نعشق، ولم نعرف سوى الحبِّ الضرورة

والعيشِ والموتِ الضرورة

ننزو بلا شغفٍ

كما تنزو الثعالبُ فى البرارى والأرانبُ فى الحظيرة

وننام فى أعضائنا المرضى الكسيرة

ونموت، نُسرق غفلةً، دون اختيار

فاثبت على إرض الجزيرة

أثبُتْ على الأرض التى منحتك مملكة، وجرِّب

لفظةَ الرفض النبيل

قل «لا» هنا،

لتقولها فى كل مملكةٍ سواها

لتقولَها يومَ الحسابِ، إذا أتى يومُ الحساب

وعادت الأشلاءُ تسأل من رماها للكلاب

ومن اشتراها وافتداها!

أَلموتُ؟

كُنْهُ أنتَ! فهو فتىً

فى مثل سنك يرتدى ذات الثياب

أخرج له موتًا لموتٍ،

مَن مِن الموّتيْنِ يغلب؟ من يذود عن التراب

واذكر هنا موتاك، واذكر وجه أمكَ،

هل تُرى أحببتها يومًا كما أحببتها فى ساعة الموت الوبيل

الموت فوق رؤوسنا، والموت بين أكفنا،

والموت يعصف بالرقاب

ونظل نحن نصيح فى فرحٍ جنونى بهِ

لا! لا سبيل إلى الجزيرة

والموت يسحب ظله عنا، وينكشف الغبار عن الصباح؟
كان الطريق إليكِ يا أمَّاهُ أن آتيك مطلولَ الجراح
كان الطريق إليك أن آتيك حاملاً السلاح
كان الطريق إليك أن أغزو لك المدنَ الكبيرة
وأضمَّها لك! للجزيرة!

١٩٦٩

من نشيد الإنشاد

خرجت أطلب فى الليل من أحبَّته نفسى
وضعتُ وشمى على جبهتى، وضمَّخت رأسى

قابلنى العسسُ السارى فى هواء المدينة
فشق صدرى وأبقى قلبى لديه رهينة

باللّه يا من ستلقَى
فى ذات يوم حبيبى
أخبره أنى انتظرتُ
إلى الصباح.. ومِتُّ!

الشاعر والبطل*

وجهى كآلاف الوجوه، لا يُرى فى المهرجان
إلا كما يُرى شعاع فى أصيل
أوعود قمح فى الحقول
لكننى أنتظر اليوم الذى تقول فيه أين أنت!
لكى ترانى واضحَ الشارة، مُعلمَ البيان
أحتضن الموتَ على أطرافِ زحفِك النبيل!

(*) هذه القصيد واحدة من خمس قصائد نظمتها فى عبد الناصر بين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٧١. وقد تغير موقفى تمامًا من عبد الناصر حتى فكرت فى إسقاط هذه القصائد من شعرى. لكنى قررت فى النهاية إثباتها، لأنها تعبر بصدق عن جانب من تاريخى، ولأن قيمتها الفنية لم تتغير فى نظرى. ولاشك أنى سأعود لتوضيح هذا الموقف فى سيرتى الذاتية.

صوتى مع الأصوات، لا يفصح إلا عن قليل
من حبىَ العميق لك
لكننى حين تصير الكلمات تضحيات
سوف أوفِّى لك دينى الثقيل!

ماذا أقول!
آلافُ آلافِ السنين فوق قلبى ذكرياتٌ خانقات
ركضُ خيولٍ!
ركضُ خيولٍ، وملوكٌ ظالمون
مساحبُ الحديد آثارُ جراحٍ فوق جدران البيوتِ،
لا تزال عالقات!
وفى وجوه الناس،
مازالت سياط الجند تلهب الصدى والكلمات
وجئتَ أنتَ واحدًا من بيننا
ماذا أقول!

أخاف أن يكون حبى لك خوفًا، عالقًا بى من قرون غابرات
فمر رئيس الجند أن يُخفِضَ سيفَه الصقيل
لأن هذا الشِّعر يأبى أن يمر تحت ظله الطويل!

ماذا أقول! هل أقول؟
إنك أعطيت وجوه الفقراء مسحةً من كبرياء
وإن عمرك الجميل
موزعٌ بالعدل فى أعمارنا
يحثنا أن نغلب الحزنَ ونتبع الدليل!

يظلمك الشعر إذا غنَّاك فى هذا الزمان
لأنه لا يستطيع أن يرى مجدك وحدهُ، بدون أن يرى
مافى الزمان من عذاب، وهوان!

١٩٦٥

الرحلة ابتدأت

من يا حبيبى جاء بعد الموعد المضروب للعشاق فينا
الفجر عاد، ولم أزل سهران أستجلى وجوه العابرينا
فأراك! لكن بعد ما اشتعل المشيب وغضَّن الدهر الجبينا
لا تبتئس أنا تأخرنا!
فبعد اليوم لن يصلوا لنا ليفرِّقونا!

ورأيت جارى فى قطارِ الليل يبكى وحده،
ويضيع فى ليل المدينة
وجهٌ ذكرْتُ به مواكبَك التى كانت طعامَ العامِ،

للفقراءِ أبناءِ السبيل

يتخطَّفُ التجارُ والعسسُ الصغارُ وجوهَهم

فى كلِّ أمسيةٍ فيطوون الضلوع على محياك النبيل

يأتى غدًا فينا!

ويجعلنا له جندا وحاشيةً،

ويجعل من منازلنا حصونَه

يأتى غدًا فينا!

يبوح بسرنا الخافى ويُسْلمنا ودائعَنا الدفينة

يأتى غدًا!

ويجف دمعهمُ ويبتسمون فى الحلم الجميل!

حتى يدور العامُ دورتَه،

فتدعوهم إليك، تمد مائدةً

وتفرط فوقهم ثمرَ الفصول

وتسلُّ سيفَك فى وجوه عدوهم

وتعود منتصرًا تحيط بك المدائن والحقول

زدنا! وتعطيهم، وتطعمهم وتسقيهم،

إلى أن يملأ الفرحُ السفينة

يتحقق الحلمُ الجميلُ لليلةٍ يتزودون بها،

وينحدرون فى الليل الطويل

يتنظرون على مداخل درورهم أن يلمحوك مهاجرًا،

تلقى عصا التسيار تحت جدارهم يوما،

وتمسح عندهم تعبَ الرحيل

لكنَّ بدر الليل لم يشرق علينا من ثنيأتِ الوداعِ

ونعاه ناعٍ!

يتمزق الصمت الحدادىُّ الكئيبُ على انحدار قطارنا

فى الليل وهو يمر منتحبًا بأطراف المدينة

يجتاحنا همٌّ ثقيل أنها اقتربت،

فماذا نبتغى بعد الوصول

والليل أثقلُ ما يكون،

كأن طيرَ الموت لم يبرح يرِفُّ بجانحيْه الأسودين،
على الكآبة والسكينة
تتراجع الأشجار هاربة
وتشخَصُ حولنا الأشياءُ ثم تميل ساقطةً
وتُمعن فى الأفول
وأشدُّ صاحبتى ونرحل فى زحام الناس،
لا ندرى غدًا ماذا يكون،
وكيف تشرق شمسه فينا ولستَ على المدينة!

لا لم يمت! وخرجنا
نجوب ليل المدينة
ندعوك فاخرج إلينا
ورُدَّ ما يزعمونه

إن كنت عطشانَ كُناَّ
إليك ريحًا ونهرًا

أو كنت جوعانَ، كنا
خبزًا وملحًا وتمرًا
أو كنت عريانً، كنا
ريشًا، وكُنَّا جناحا
أو فى غيابات سجن
كنا مَدىً وسَراحا
أو كنت مستنصرًا،
كنا السيف والأنصارا
أو تائهًا فى الصحارى
كنا القرى والدارا
تعود فينا فقيرًا وعاريًا وغريبا
تصير فينا، فتعطى الرماد هذا اللهيبا!

كنا نفتش عنك فى أنحائها
والليل يوغل، والمقاهى بعدُ يقَظَى،
والمصابيحُ الكئيبةُ والعيون

متطلعين! كأنما من شرفة سنراك تظهر،
أو من الراديو تصيح بملء صوتك،
ساخرًا مما ادَّعاه المدَّعون
أو أن إنسانًا سيخرج هاتفًا فى الليل:
عاد إلى الحياة!
أو أنها هى ليلة الغار التى ستغيب فيها،
ثم تشرق فى المدينة
نلقاك فيها ناشرين أكفَّنا ظلاً عليكَ،
وجاعلين صدورنَا درعًا حصينة
لكنَّ أضواءَ الصباح تسللت من خلف قاهرة المعز،
ولم تلُح للساهرين:
ومشت رياحُ الأرض، أوراقُ الجرائد فيك،
بالنبأ الحزين!
فإذن هو النبأ اليقين!
واناصراه!

مالت رؤوسُ الناس فوق صدورهم،
وتقبلوا فيك العزاء
وأجهشت كلُّ المدينة بالبكاء!

كونى ندىً ياشمسُ أو غيبى
فاليوم يرحل فيك محبوبى!
كونى ندىً يا شمسَ هذا اليوم
عينُ الحبيب استسلمت للنوم!

ورأيت فى الطرقات قاهرةً سوى الأخرى،
تفجرت المصيبةُ عن مداها
خرجت إليك مع الصباح كأنها مادت،
وعادت مرة أخرى تموج بماً تخبِّىء فى حشاها
تتدفق الأحياء حيًا بعد حى حول مجرى نيلها،
وتغيب فى أجساد أهليها الشواهق والصروح

ويضيع فى أبنائها الباكين أبناءُ المماليك الصغار،

ويلمع النجمُ القتيل على ذراها

وترفرف الشاراتُ

تتدلع المناديلُ الصغيرةُ فى سوادِ جنائزِ الصبح الفسيح

لا لم يمتْ!

وتطل من فوق الرؤوس وجوهُك السمرُ الحزينة

لم يبق منك لنا سواها

تتشبث الأيدى بها

فكأنما أصبَحْتَ آلافَ الرجال

وكأنما أصبَحْتَ للكف التى حملتك ملكًا خالصًا

فلكل ثاكلةٍ «جمال»!

ولكل مضطهدٍ «جمال»!

يا أيها الفقراء!

يا أبناءه المتنظِّرين مجيئَه.. هو ذا أتى!

خلع الإمارةَ! وارتدى البيضاءَ والخضراءَ
وافترش الرمال
هو ذا أتى!
ليمر مرَّتَه الأخيرةَ فى المدينةِ،
ثم يأوى مثلكم فى كهفها السرىِّ يستحيى لظاها
يستنهض الموتى، ويجمعكم ويصعد ذات يومٍ
مثل هذا اليوم،
يعطيكم منازلَها، ويمنحكم قراها
هو ذا أتى!
فدعوه أنتم يا مماليكَ المدينةِ،
إننا أولى به يوم الرحيل
نبكيه حتى تنضبَ المقَلُ الضنينة
نبكيه حتى ترتوى الأرض التى لابد سوف نهز
نخلتها،
ونطعم من جناها!

يتنزَّلُ الجسدُ المسجَّى فى خضم الناس.
يصبح مِلكَ أيديهم، وترتحل السفينة
وتلوِّح الأيدى!
نحس كأنَّ خرجنا من مدينتنا إلى بلدٍ غريب
يتواثب الأطفالُ فوق الأمهات الباكيات،
وتحمل الأجيالُ أجيالاً، وتنفجر المدينة
بحر من الحزن المروِّعِ،
آه! كم جيلٍ من الجدات تمتلىء السماءُ بهنَّ،
يُمطِرْنَ المدينةَ بالمراثى وهى تمشى فى فتاها!

يا أيها الحزنُ مهلاً واهبط قليلاً قليلاً
استوطن القلب واصبر ع العين صبرًا جميلاَ
أيامُنا قادماتٌ وسوف نبكى طويلاَ

هذا حصانكُ شاردٌ فى الأفق يبكى،

من سيهمزه إلى القدس الشريف!

ومن الذى سيكفِّنُ الشهداء فى سينَا، ومن يكسو العظام

ويثبِّت الأقدام إذ يتأخر النصر الأَليم ونُبتلى بمخاضه

الدامى العنيف؟

ومن الذى تغفو عيونُ المريماتِ على اسمِه أن المعادَ غدًا

إلى أرض السلام

ومن الذى سيؤمنا فى المسجد الأقصى، ومن سيسير

فى شجر الأغانى والسيوف!

ومن الذى سيطل من قصر الضيافة فى دمشق،

يحدِّث الدنيا ويلحقها ببستان الشآم!

ومن الذى سيقيم للفقراء مملكةً وتبقى ألف عام!

ومن الذى سنعود تحت جناحه لبيوتنا نحيا ونسعد بالحياة

هذا حصانك شارد فى الأفق يبكى

والمدائن فى حديد الأسر تبكى.. والصفوف

تبكيك.. والدنيا ظلام!

لو كنت أعلم أن يوم الملتقى سيكون فى ذاك النهار

لقنَعتُ منك بزورةٍ فى كل عامٍ، وارتضيت الإنتظار

ها أنت فى دارى.. فمن للأرضِ والمدنِ الأسيرة،

والصغار

أمسك عليك حصانَك الباكى وسيفَك،

إن رحلةَ حبنا

ستكون حربًا.. لا يقر لها قرار!

اكتوبر ١٩٧٠

رقص

أتوُه فى الصحارَى
حتى أرى ينبوعا
أصبح فيه قطرةً
أو برعمًا مقطوعا
أعبر فيه الليل والنهارا
والصيف والربيعا
أدخل فيه دارا
أخرج من نافورةٍ فى صحنِها
تأخذنى صبية فى حضنِها
تمسح عنى العارا!

أتوه فى النايات والدفوفِ

مهاجرا فقيرا

أحمل دفِّى، قمرى، رغيفى

أحمل فوق جبهتى ذنوبى

أرقص مستجيرا

أهز دفِّى فوق رأسى

أحمل قرصَ الشمسِ

أهزه بين الشروق والغروبِ

وبين هامتى وظلى

أعبر فيه البلد الأخيرا

أعبر فيه نفسى

أهز دُفِّى حولى

يسَّاقط الإيقاع منى ثمرا

أُطعمه ضيوفى

أهزه يصبح فوقى قمرا

يحملنى إلى حبيبى!

أتوهُ فى المدينة

حتى أرى عباءة

أجعلها ريشى ودرعى

أحبس فيها دمعى

أعبر فيها الساحةَ المضاءة

والرايةَ الحزينة

آخذ نفسى تحتها رهينة

وأختفى

أموت ميتة الفجاءة

أتوه فى رقصتها الليلية

أنظر من مائدتى المطفأةِ الأنوارِ

للجسد العارى

للجسد الضحية!

أدخل فى أُحبولةِ الأوتارِ

ألبس جلد الحية

أرقص فى الأقراط والقلائد

أرقص فى السيقان والسواعد

أرقص فى تأرجح الثمارِ

فى الجسد المصلوب فى العشية!

أسقط فى العينين والأصابع

أسقط فى الدوارِ

فى لحظةِ انفعالها الخفية

فى كنزها المخبوءِ تحت وجهها المخادع

فى الجسد النابضِ تحت الشبكة

تحر توالى ضرباتِ العازفِ الوحشية

أرقص فى تخبطات السمكة

فى لمعان عينها الميتة الفضية

أرقص فى الوحش وفى المصارع

أرقص حتى أستعيد جسدى

حتى أراه بيدى

أنسل تحت أرجل الموائدْ

ولا أكون الشاهدْ!

ولا أكون الشاهدْ!

١٩٦٩

الشهود

«فى المحكمة التى شكلها الفيلسوف برتراند راسل من كبار المثقفين لمحاكمة الرئيس الأمريكى الأسبق جونسون كمجرم حرب.. قرر مائتان من الفيتناميين حضور المحاكمة كشهود».

نحن الشهودُ

نقسم بالله العظيم أن نقول الحقَّ

وكيف يكذب الرجال الميتون

ألقادمون من أقاصى الشرقِ

ليمثُلوا بين يديكم ساعةً

ويرجعوا إلى اللحوّد!

نحن الشهودَ
نقسم بالله العظيم أن نقول الحقّ
وفيم يكذب الرجالُ الفقراء
إن سُئِلوا عن عالمٍ،
لا يملكون فيه إلا وقفةً على الحدود
يرون منها الأنبياءَ، والملوك، والطغاة
ثم يموتون على أيدى الجنود

كنا قُبيْل أن نموت
مزارعين، أو رعاة
بحارةً، أو ربما رجالَ دين
أو خدمًا نجوس داخلَ البيوت

حين سقطنا ميتين!

.

متنا فرادى.. ربما

لكننا جئنا هنا مجتمعين

نرفع صوتَنا المجلجلَ الحزين!

١٩٦٦

الجسد

سماءُ شُبَّاكِيَ غيرُ مقمرة

والجسدُ الجميلُ نامْ

وثَمَّ ضوءٌ شاحبٌ،

يغسل جوَّ الحُجُرة

يشعُّ من أشيائِها المنتثرة

حتى لتبدو قِطعًا من الغمامْ

على سماءٍ عكرة

والنسماتُ ابتدأت تمسح عُرَى الشجرة،

والجسدُ الجميلُ نام

تهدَّجت أنفاسُه تحت يدى
صاعدةً، منحدرة
وانبسطت أعضاؤُهُ
لينةً، منكسرة
وبانت العظامْ!

لا يا حبيبتى! انهضى
لا تتركينا وحدنا
أنَا وعُريَكِ الطفولىَّ الوديع
ضعى مساحيقَكِ،
وارتدى ثيابَ أولِ الليل،
وعودى نمرة!
وأنهكينى، أنهكينى بالشجارِ والخصامْ
حتى.. أنامْ!

١٩٦٦

خبـــــر

فى الليل جاءنى الخبر

ألقى به رسولُها

ثم اختفى كما ظهر

فى حضن من أبكى؟

من يحمل الفرحةَ عنى لحظةً

أبكى قليلاً.. وأواصل السهر!

١٩٦٤

يا هواى عليك يا محمد(*)

إن كنتَ سليمًا حتى الآنْ
فاضربْ!
إضربْ! يا ذا القلبِ النشوانْ
والوجهِ المتعبْ
أنفض عن قلبك دهشتهَ الأولى
وبراءتَه المستهولةَ الإنسانَ الغولا
وخُضِ النيران

(*) محمد عبد المعطى حجازى شقيق الشاعر. حارب فى سيناء عام ١٩٦٧ وكانت أمه تدلله وهو طفل فتغنى له الأغنية الشعبية الريفية:

ياهواى عليك يا مـحـمـد	يـا هـواى عـلـيـك!
ومـحـمـد لابس برمكى	وأنا قلت لـه مـبـارك
إمـتـى يـؤون الأوان	وأخـش دوارك

«ياهواى عليك يا مُحمد
يا هواى عَليك!»

ومُحمَّدُ أقربُ إخوتىَ لقلبى
وصديقى
ورفيقُ طريقى
كنا أخوّينِ
فأصبحنا من بعد وفاة أبينا
طفليّنِ وأبوّينِ!
نتلاقى تحت غبار السعىِ بوجهٍ صارم
فإذا أُبنا لمراقدنا
أوحشَ كلاً منا الأخرُ
حتى يتمنى أن يلقاه،
وقد فارقه من ساعة
وكأنَّ الواحدَ منا إذا ترك أخاهُ،

أضاعه

يستسلم كلٌّ منا لبكاءٍ عذبٍ مقهور

يغسلنا من آثام رجولتِنا المثقلةِ بغير أوان

ويعيد لنا عهدَ صبانا الزاهى المبتور!

ومحمد أذكره طفلاً غضبانَ جميلا

طفلاً يلقى عالمَهُ بطهارة قلبٍ متلهِّبْ

يسأله أن يصبح بيتًا مأهولا

أفقًا مغسولا

يسألنا ألا ننساه

ألا نلقاه بوجه متقلِّبْ

يسألنا ألا.. نكذبْ!

فى هذا العالم يا ولدى

فى السوق المائج بالعجزة والجهلة

بالمقتولين وبالقتلة

نغرق فى الكَذِبِ وفى التضليل

كى نحفظَ مما بقىَ لنا.. هذا الرمَقَا

فارفع يا ولدى أنت سلاح الحقِّ

لكى تحمىَ هذا الحقَّا

أرنا الصدقَ المضطهدَ، وقد سلَّح نفسَه

ومشى مدَّرعًا

ممتطيًا فرسَه

بين هتافات المظلومين!

ومحمدُ! أجملُ ما أعطى الحبُّ العاجز

ما بين الرغبةِ والحرمان

أشهد وجهه

ما بين الذكرى والنسيان

أشهد وجهه

بين صباه، وضياعِ صباه

أشهد وجهه

فى الموسيقى أشهد وجهه

إذ يهرب أعذبُ ما فيها من ألحان

وتظل تحِنٌّ تحِنٌّ له الآذان

أشهد وجهه

فى الأسرة، إذ يجتمع لها الشملُ المفقود

فى صبح العيد

ويشق تعاسةَ أوجهِنا

هذا الفرحُ الباكى المولود

أشهد وجهه

فى الليل الممتد السهران

يشرد فيه حتى يتعب

ويعود لنا

وهنالك شىء فى عينيه

فى شفتيه.. يتعذب

شـىء! لا أدرى كيف تحمل فيه الكتمان

حتى وهو يغنى، ويحب، ويشرب!

فاضرب!

أفصح عن هذا الشـىء الآن

استجمع أحزانك واضربْ

استنهض قلبَكَ فى يدك... وصوِّبْ

اضربْ!

بخروجكِ ذاتَ صباحٍ مبتسمًا للديَّان

تسأله يومًا مبتسمًا

وصديقًا مبتسمًا

وفتاةً تأخذها فى حضنِ النيل المعشوشب

وتسرِّى عنها الأحزان

فإذا بالغارة والعدوان!

فاضرِب!

اضرب بصباك العطشان!

بأخوّتنا

بطفولتِنا المظلومة!

بأبينا المحتَضَرِ الأشيب!

بالدربِ الصاعدِ من منزلنا

حتى الصفصاف الملتفِّ على وجهِ الترعة

حيث توضَّأنا فى الظهُّرِ وصلَّينا

وغمسنا فى الشمس الملتهبةِ فى الماء

نشوتنَا الأولى الخضراءَ الحمراء!

اضربّ!

بتشردنا بين الطرقِ المسدودةِ

والأفكارِ المحمومة

بين الكتبِ الرائعةِ المرسومةِ

أطفالاً، وقلوبًا، وشموسًا لا تغرب!

اضربّ!

بتغرُّبنا فى المدنِ المتوحشةِ القذرة

نفقد فيها قريتَنا وبراءتَنا

حتى نتلاقى، فنحسَّ بسوأتنا

ونداريها، بعيونٍ خجلى معتذرة!

اضربْ!

بوادعِكَ إيَّانا. أمى وأنا تحت الشجرة

آخرُ ما فى ذاكرتى عنك

الخوذةُ، وثيابُ الحربِ الصفراء

والوجهُ المستشهدْ!

«يا هواى عليك يا مُحمدْ!

يا هواى عليك يا مُحمدْ!»

يونية ١٩٦٧

نوبة رجـــوع

حـــين يرتاح جـثـمـان الشـهـيد على
أرض الـوطـن تـعـزف المـوسـيـقى
الـعـسـكـرية «نـوبـة رجـوع»!

كأنَّ صوتًا ما ينادى!
فتعود من وراء الأفق أسرابُ الحمائمْ
تدور فى شمس المغيب دورةً، وتفترقْ

كأن صوتًا ما ينادى!
تخلع الأرضُ قميصَها الذى احترقْ
تخضوضَرُ الظلالُ فجأة، وتنفث البراعمْ

بخارَها العطرىَّ فى قلب السخونة

كأن صوتًا ما ينادى!
تنهض الريحُ السجينة
دافعةً أمامها حقولَ قمحٍ وأغانىَّ وقطعانَ غَنَمْ!
كأن صوتًا ما ينادى!
فيرفرف العَلَمْ
يمطر وحشة، وحزنًا، وحنينا، وسكينه
فى شرفة المدرسة التى اختفى ضجيجُها
وأقفرت ساحتُها
ورصعت أشجارها الخضرَ طيورُها البواغمْ

كأن صوتًا ما ينادى!
فنغيب نحن لحظةً وتُشرق المعالم
يدهشنا أنَّا نحب هذه المدينة

وأننا قد اكتشفنا خلسة، فى هذه الأبنيةِ الجواثمَ
أشياءها الدفينة
وأن فيها امرأةً، تخطر فى قميصِ نومِها
وقطةً تموءُ فى السلالم!

كأن صوتًا ما ينادى!
فنجيبه: نعم!
نحس عضة الحنين والألم
وتنبض الذكرى بأسماء البلاد،
والرفاق، والمواسم

كأن صوتًا ما ينادى!
يزحَمُ الرجالُ أبوابَ القرى
فى سُحب من الغبار والشفق
يسقط من جباههم ماء الوضوء والعرق

ويستجيش الليلُ أصواتَ البهائم!

كأن صوتًا ما ينادى!

تُنصب الأعراسُ والمآتم!

كأن صوتًا ما ينادى!

فنجيب: يا بلادى! يا بلادى! يا بلادى!

مرثية لاعب سيرك

فى العالم المملوء أخطاءَ
مُطالبٌ وحَدك ألاَّ تخطئًا
لأن جسمَك النحيلْ
لو مرة أسرعَ أو أبطأَ
هوى، وغطى الأرض أشلاءَ!

فى أى ليلةٍ تُرى بقبع ذلك الخطأْ
فى هذه الليلة! أو فى غيرِها من الليالْ
حين يغيض فى مصابيح المكان نورُها وتنطفئْ
ويسحب الناس صياحهم،

على مَقْدمِكَ المفروشِ أضواءَ!

حين تلوح مثل فارسٍ يجيل الطرفَ فى مدينته
مودِّعًا. يطلب ودَّ الناسِ، فى صمتٍ نبيلْ
ثم تسير نحو أول الحبالِ،
مستقيما مومئًا
وهم يدقُّون على إيقاعِ خطوكِ الطبولْ
ويملأون الملعب الواسع ضوضاءَ
ثم يقولون: ابتدئْ!
فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأ!

حين يصير الجسمُ نهب الخوف والمغامرة
وتصبح الأقدام والأذرع أحياءَ

تمتد وحدها

وتستعيد من قاع المنون نفسها

كأن حياتٍ تلوَّت،

قططًا توحشَّتْ، سوداءَ بيضاءَ

تعاركت وافترقت على محيطِ الدائرة

وأنت تُبدى فنَّك المرعبَ آلاءً وآلاءَ

تستوقف الناس أمامَ اللحظةِ المدمرة

وأنت فى منازل الموتِ تَلجُّ عابثًا مجترئًا

وأنت تفلُت الحبالَ للحبال

تركت ملجأً، وما أدركت بعدُ ملجَأ

فيجمد الرِعبُ على الوجوه لذةً، وإشفاقًا، وإصغاءَ

حتى تعود مستقرًا هادئًا

ترفع كفيك على رأس الملأْ

فى أى ليلة ترى يقبع ذلك الخطأْ!

ممددًا تحتك فى الظلمةِ،

يجتر انتظارَه الثقيلَ

كأنه الوحشُ الخرافىُّ الذى ما روَّضت كفٌّ بشر

فهو جميلٌ!

كأنه الطاووسُ،

جذابٌ كأفعى،

ورشيقٌ كالنمر!

وهو جليلٌ!

كالأسد الهادئ ساعة الخطرْ

وهو مُخاتلٌ، فيبدو نائمًا

بينَا يُعدُّ نفسه للوثبةِ المستعرة

وهو خفىٌّ لا يُرى

لكنه تحتك يعلِكُ الحجر

منتظرًا سقطتَك المنتظَرة

فى لحظةٍ تغفُل فيها عن حساب الخطوِ

أو تفقد فيها حكمةَ المبادرة

إذ تَعرِضُ الذكرى!

تغطى عريَها المفاجئًا

وحيدةً معتذرة

أو يقف الزهوُ على رأسِك طيرًا،

شاربًا ممتلئًا!

منتشيًا بالصمت، مذهولاً عن الأرجوحةِ المنحدرة

حين تدور الدائره!

تنبض تحتك الحبالُ مثلما أَنْبضَ رامٍ وَترَه

تنغرس الصرخةَ فى الليلِ،

كما طوحَّ لصٌّ خنجره

حين تدور الدائرة!

يرتبك الضوءُ على الجسم المِهَيضِ المرتطم

على الذراع المتهدلِ الكسيرِ والقدمْ

وتبتسمُ!

كأنما عرفت أشياءَ

وصدقت النبأْ!

١٩٦٦

إشاعـــة

ولما تسلل فى الليل من أخبرونى

بأنهمو فى انتظارى

وأنهمو شوهدوا حول دارى

وقعت سجينا

وهـأنذا هاربٌ ومُطارَد

أهيمُ بلا وجهة

أتخبطُ فى العرباتِ، المحلاتِ

مفترق الطرقات، الحوارى،

حبالِ التليفون، ضوء النيون، مرايا المصاعد

أحاول أن أتدبرَ أمرى،

أعدّ دفاعى

أحدقُ فى كل شىء أراهُ

كأنى أبثُّ إليه اعتذارى

كأنى أحاول نقلَ المدينة فى مُقلتىَّ لسجنى

ولكن بلا طائل، فأنا هاربٌ

والمدينة تهرب منى

وأشعر أنى فقدت قناعى

ملامحَ وجهى

وأنى أحسُّ ببعض الدوارِ

وأن علىَّ التحلى ببعض الشجاعة!

أقولُ لهم:

- لن أجيبَ فلستم قضاتى!

أقول لهم:

- قد يكون صحيحًا، وقد لا يكون
أتته يدى.. أو طوته الظنون!
أقول لهم:
- بل أنا مذنبٌ! فاقتلونى!

مضت ليلةُ الرعبِ مبطئةً،
ساعةً إثر ساعة
وأقبل من أخبرونى
بأن الذى سمعوه.. إشاعة!

١٩٦٦

بكائية لبلاد النوبة

لم يتركوا شيئًا هنا
فالدورُ خاويةٌ كأن لم تبك فيها طفلةٌ
أو يشتعلْ فيها غرامْ
ونظيفةٌ، فكأنها اغتسلت لتدخل عالمًا
خلف الغمامْ
وكأنما صارت لها روحُ المكانِ الأخرويْ
قبرٌ ظليلٌ فى فلاة
أو معبدٌ ناءٍ تهوِّم فى زواياه صلاة!

لم يتركوا شيئًا،

سوى الشمس التى وقفت على شطِّ المغيب

تكسو منازلهم بلونٍ برتقالى غريبٍ،

كلما أمعنتُ فيه

أحسستُ أن به رمقً

وكأنما خلف المغيب الخانق المصفرِّ شىءٌ يستغيث

والناسُ يلتقطون تحت شعاعهِ صورَ الغرقْ!

لم يتركوا شيئِا هنا .. إلا الرياح

جنِّيةَ البلد التى قد خلفوها فديةً للنهرِ،

تبكى فى انتظار مصيرها

تمشى على الجدرانُ مُسدلَةَ الوشاح

وتظل تسعى بين قريتها وبين النهرِ،

تنظر كيف ترتفع المياه

وتضيق أبوابُ النجاة!

لم يتركوا شيئًا هنا.. إلا النخيل
بجذوعه الغرقى، فلو عادوا لما عرفوا المكان
ولضاعت الذكرى كأنَّ الأمس مات،
فلا مفرٍّ من الرحيلْ

لم يتركوا شيئًا،
وماذا يترك الفقراءُ فى القفر العريض
إلا عظامَ الميتين!
إلا الأجنَّةَ فى بطونِ الأمهات!

١٩٦٥

اللقاء الثانى

بعد فراقٍ طال يا حبيبتى،

جاء اللقاءُ

الله توَّج البكاءَ بالبكاء

أحيا دموعَنا التى كادت تجف

وشجَّرَ الأذرعَ فى صمتِ المساءْ!

لنرتحلْ كأننا نواصل الآن لقاءنَا القديم

كأننا كنا غفونا زمنا

ثم رجعنا أذرعا مشتبكة

وأوجهًا مستضحكة

نمسح عن جنوبِنا الحَصى، وعن وجوهِنا الغيوم!

لنرتحلْ من قبل أن يدهمَنا وجهُ الزمان

من قبل أن تتجُمَ فى فرحتنا

شجيرةُ الذكرى ويدنو من وراءِ الليلِ طلعُها الكظيم

كأننا وشارةُ الحب علينا أخوان توأمان

فإن عبرنا بالرجال ابتسموا فى وجهنا كأنهم آباؤنا

وإن عبرنا بالنساء

لذن بأطراف الثياب واشتهين مثلنا!

كأننا على طريق حبنا مستشهدان
نعبر فى حلم فتاة جاءها الحبُّ قويا يافعًا
فهزها حتى بكت
وبعدما أخافها غادرها
فى قمر مكتمل، وفى نسيمٍ فاترٍ
يقبل من حقلٍ بعيد
قلَّبت الوجهَ على سريرها حتى غَفَت
حينئذ لحنا لها فانتظمت أنفاسُها
وابتسم الوجهُ ونام فى أمان!

عامان كَرًّا، كلُّ ليلٍ انتماء
وكلُّ خطوةٍ مصير
ونحن نعبر الليالى جاهديّن أن نظل أوفياء
لذلك الوجه الذى كان يزورنا مع الليل الأخير!

عامان كَرًّا .. آه هل أنت التى عرفتُها،
وهل ترى أنا الذى عرفتِهِ قبل فراقنا المرير!
شعرك يا حبيبتى أقصرُ مما كان،
لكن تلك نكهةُ العناق
ولم تزل فى شفتيكِ رجفةُ الشوقِ وأهبةُ التلاق
لكننى أرى بعينيك اللتين صارتا عميقتين
شيئًا يقوم بيننا!

فلنرتح الآن هنا من حبنا
ينصُبُ كلٌّ واحدٍ قامتَه تحت السماء
يمسح جرحَه الذى أهمله طوال أيام الشقاء
يندب نفسَه ويبكى وحده حتى نهاية المساء
فإن أتى الليل علينا فالتقَتْ أكفُّنا
فلنمض فى طريقِنا
وليحفظ الله لنا هذا اللقاء!

١٩٦٤

تعليق على منظر طبيعى

شمسٌ تسقط فى أفْقٍ شتوىّ
شمسٌ حمراءْ
والغيمُ رصاصىّ
تنفذ منه حُزم الأضواءْ
وأنا طفلٌ ريفىّ
يدهمنى الليلْ!

كانت سيارتنا تلتهم الخيطَ الأسفلتْ
الصاعدَ من قريتِنا لمدينتِنا
حين تمنيتُ
لو أنى أقذف نفسى
فوق العشب المبتلّ!

شمسٌ تسقطُ فى أفقٍ شتوىّ
قصرٌ مسحورْ
بوابةُ نورْ
تُفضى لزمان اسطورىّ
كفٌّ خُضِبت بالحِنَّاءْ
طاووسٌ يصعد فى الجوزاءْ
بالذيل القرحىِّ المنشورْ!

فى الماضى كان الله

يظهر لىَ حين تغيب الشمس

فى هيئة بستانىّ

يتجول فى الأفق الوردىّ

ويرش الماء على الدنيا الخضراءْ

الصورةُ ماثلةٌ

لكنَّ الطفلَ الرسامْ

طحنته الأيامْ!

١٩٦٧

مرثية للعمر الجميل

فى ذكرى عبد الناصر

هذه آخرُ الأرضِ!
لم يبق إلا الفراقْ
سأسوِّى هنالَكَ قبرا،
وأجعلُ شاهدَه مزقةً من لوائك،
ثم أقول سلاما!
زمنُ الغزواتِ مضى، والرفاقْ
ذهبوا، ورجعنا يتامى
هل سوى زهرتين أضمهما فوق قبركَ،

ثم أمزق عن قدميَّ الوَثاقْ

إننى قد تبعتك من أول الحلمِ،

من أول اليأسِ حتى نهايته،

ووَفَيْتُ الذماما

ورحلت وراءك من مستحيلٍ إلى مستحيلْ

لم أكنْ أشتهى أن أرى لونَ عينيكَ،

أو أن أُميطَ اللثاما

كنت أمشى وراء دمى

فأرى مدُنًا تتلألأ مثل البراعمِ،

حيث يغيم المدى ويضيعُ الصهيل

والحصونُ تساقطُ حولى،

وأصرخ فى الناس! يومٌ بيومٍ،

وقرطبةُ الملتقى والعناقْ

آه! هل يخدع الدمُّ صاحبَهُ،

هل تكون الدماءُ التى عشقتكَ حراما!
تلك غرناطةٌ سقطت!
ورأيتك تسقط دون جراحٍ،
كما يسقط النجمُ دون احتراق!
فحملتك كالطفلِ بين يدىَّ وهرولتُ،
أُكرم أيامَنا أن تدوسَ عليها الخيول
وتسللتُ عبر المدينة حتى وصلتُ إلى البحرِ،
كهلاً يسير بجثةِ صاحبه،
فى ختام السباق!

من تُرى يحمل الآن عبءَ الهزيمةِ فينا؟!
المغنىِّ الذى طاف يبحث للحلم عن جسدٍ يرتديهْ
أم هو المَلِكُ المدّعى أن حلم المغنِّى تجسَّد فيهِ؟!
هل خُدعتُ بملكك حتى حسبتكَ صاحبىَ المنتظَرْ

أم خدعتَ بأغنيتى،
وانتظرتَ الذى وعدتّكَ به ثم لم تنتصرْ
أم خُدعنا معًا بسرابِ الزمانِ الجميلْ؟!

كان بيتى بقرطبةٍ،
والسماءُ بساطٌ،
وقلبىَ إبريقُ خمرٍ،
وبين يدىَّ النجومْ
صاح بى صائحٌ: لا تصدقْ!
ولكننى كنتُ أضربُ أوتار قيثارتى،
باحثًا عن قرارةِ صوتٍ قديمْ
لم أكن بالمصدّقِ، أو بالمكذّبِ،
كنت أغنى، وكان الندامى
يملأون السماءَ رضًى وابتساما!

والسماءُ صَحَارَى،

وظهرُ مدينتنِا صهوةٌ

والطريقُ

من القدسِ للقادسيةِ جدٌّ طويلٌ

قلتَ لى:

كيف نمضى بغير دليل؟

قلتُ:

هاك المدينةَ تحتكَ،

فانظر وجوهَ سلاطينِها الغابرينَ

معلقةً فوق أبوابِها، واتق الله فينا

كنتُ أحلم حينئذٍ،

كنتُ فى قلعةٍ من قلاع المدينة مُلقىً سجينا

كنت أكتب مظلمةً،

وأراقبُ موكبكَ الذهبىَّ

فتأخذنى نشوةٌ، وأمزق مظلمتى،

ثم أكتب فيك قصيدة

آه يا سيدى!

كم عطِشنا إلى زمنٍ يأخذ القلبَ،

قلنا لك اصنعْ كما تشتهى،

وأعدّ للمدينةِ لؤلؤةَ العدلِ،

لؤلؤةَ المستحيلِ الفريدة

صاح بى صائح: لا تبايعْ!

ولكننى كنت أضربُ أوتارَ قيثارتى،

باحثًا عن قرارةِ صوتٍ قديمٍ!

لم أكن أتحدثُ عن ملكٍ،

كنت أبحث عن رجلٍ،

أخبر القلبُ أن قيامتهَ أوشكت.

كيف أعرف أن الذى بايعته المدينةُ،
ليس الذى وعدتنا السماء؟!
والسماءُ خلاءٌ
وأهلُ المدينة غرقى يموتون تحت المجاعة
ويصيحون فوق المآذنِ
أن الحوانيتَ مغلقةٌ
وصلاةَ الجماعة
باطلةٌ،و الفرنجةَ قادمةٌ،
فالنجاءَ النجاءّ!
ووقفتُ على شرفاتِ المدينةِ أشهدها،
وهى تشحبُ بين يدىَّ كطفلٍ،
ويختلط الرهَجُ المتصاعدُ حول مساجدها
بالبكاء
وأنا العاشقُ المستحثُّ قوافىَّ من يوم أن وُلدَتّ

واستدارت على جيدها وسوساتُ القلادة

تهتُ فيها، وضاع دليلى

يا تُرى هل هو الموتُ؟

هل هو ميلادُها الحقُّ؟

من يستطيع الشهادة؟

أنا لا!

لم أكن شاهدًا أبدًا

إننى قاتلٌ أو قتيلٌ!

متُ عشرينِ موتًا،

وأهلكتُ عشرين عمرًا،

وآخيتُ روحَ الفصول

تتوارى عصوركمُ وأظل أغنىِّ لمن سوف يأتى،

فترجع قرطبةٌ، وتجوزُ الشفاعة

صاح بى صائح: أُنجُ أنتَ!

ولكننى كنتُ فى دم قرطبةٍ أتمزقُ،

عبر المخاضِ الأليم

كنت أضربُ أوتارَ قيثارتى،

باحثًا عن قرارةِ صوتٍ قديم

صحتَ بى أنت..

هل كنتَ أنتَ الذى انتظرتْه المدينةُ،

هل كنتَ أنتْ؟!

آه؟ لا تسألونى جوابًا،

أنا لم أكن شاهدًا أبدًا

إننى قاتلٌ أو قتيلْ

وأنا طالبُ الدمِ،

طالبُ لؤلؤةِ المستحيلْ

.

كان بيتى بقرطبةٍ

بعث قيثارتى، ثم جزتُ المضيقْ

قاصدًا مكةَ، والطريقْ

رائعٌ.. كنتُ وحدى وكانت بلادى دليلى

وكان محمدُ فوق المآذنِ يمسك طَرْفَ الهلالْ

وينير سبيلى

ويوقف خيلَ الفرنجةِ

يمسخها شجرًا أخضرًا فى التلالْ!

إننى أحلم الآنَ.

بيتى، كان بغرناطةٍ

بعتُ قيثارتى، واشتريتُ طعاما

ورحلتُ إلى بلد لست أدرى اسمَهُ،

جعتُ فيه

وانضممتُ لطائفةِ الفقراءِ بهِ،

واتخذتُ أمامًا

هل هو الوحىُ؟

أم أنه الرأىُ يا سيدى والمكيدة

هل أُمِرنا بأن نرفع السيف؟ أم نعطىَ الخدَّ؟

هل نغصبُ المُلكَ؟ أم نتفرقُ فى الصحراءِ؟!

ولَقيتُكَ. أنتَ الذى قلتَ لى:

عُد لغرناطةٍ، وادعُ أهلَ الجزيرةِ أن يتبعونى،

وأحيى العقيدة!

إننى أحلم الآن.

لم تأتِ

بل جاء جيشُ الفرنجةِ

فاحتملونا إلى البحر نبكى على المُلكِ،

لا، لست أبكى على المُلكِ،

لكن على عُمُرٍ ضائعٍ لم يكن غير وهمٍ جميل!

فوداعًا هنا يا أميرى!

آن لى أن أعود لقيثارتى،

وأواصل ملحمتى وعبورى

تلك غرناطةٌ تختفى

ويلف الضبابُ مآذنَها

وتغطى المياه سفائنَها

وتعود إلى قبركَ الملكىِّ بها،

وأعود إلى قَدَرى ومصيرى

من تُرى يعلم الآن فى أىِّ أرضٍ أموتُ؟

وفى أىِّ أرضٍ يكون نشورى؟

إننى ضائعٌ فى البلادِ

ضائعٌ بين تاريخىَ المستحيلِ،

وتاريخىَ المستعادْ

حاملٌ فى دمى نكبتى

حاملٌ خطأى وسقوطى

هل تُرى أتذكَّر صوتى القديمَ،

فيبعثنى الله من تحتِ هذا الرمادْ

أم أغيبُ كما غبتَ أنتَ،

وتسقط غرناطةٌ فى المحيطِ!

سبتمبر ١٩٧١

خمس أغنيات للشىء المنسى

(١)

قد نستطيع أن نفرَّ بالجلودْ

نحملُ فى رِحالِنا الثيابا

ونحملُ النقود

لكن شيئًا ما سننساه هناك فى البلد

شيئًا سيبقى بعدنا ينتحب انتحابا

ويملأ الأماكنَ اغترابا

وبعد أن ييأس من عودتنا يموت للأبد

حينئذ نسقط ميتين فى المنفى البعيد!

(٢)

من يستطيع يا ترى أن يحمل العَتابا
كما نغنيها هناك
أن يحمل القريةَ والترابا
والمنظرَ المألوفَ فى شُبّاكِهِ
واللغةَ الحميمةَ الودود
والقطةَ الولود
والصوتَ والمحرابا!

من يستطيع يا ترى،
أن يحمل الأمنَ الذى يُسِرُّهُ آباؤنا لنا
وهم رقود فى اللحود
فندخل الدنيا شبابا!
من يستطيع أن يمدَّ للجدود

جسرًا وبابا

لينفذوا عبر الدمِ الهجينَ والمنفى إلى أبنائِهِ

يعلموهم الكتابا

ويسألوهم الإيابا!

(٣)

نبحث عن مدينة تمنحنا الأمان
تمنحنا الرغيفَ والخمرةَ والوجهَ الجديد
تمنح وقتَها السعيد
لابنتنِا التى ذوى جمالُها
وناء بالصبغةِ وجهُها المهان!

(٤)

الأرض أصبح اسمُها يهوذا
فكيف أصبحتَ تسمى يا قمر؟!
وهل تُرى تجيبنا يهوذا
إذا سألناها حنانًا بالشجر!

(٥)

أحلم أنِّى يا فلسطينُ أعود

أعود وحدى متسلِّلا إليكِ فى المساء

أسير تحت أنجمٍ ساطعةٍ

على رمال رطبةٍ

والبحرُ يأتى من بعيد

وفى شراعٍ، فى مكانٍ ما بصيصٌ من ضياء

يصحو قليلاً، ثم يخبو من جديد

وأنتِ فى شبهِ نشيد

وأنتِ فى شبه نشيدٍ تشرقين يا بلادى

تتجلين لطفلك الوحيد!

اغتيـــال

إننى قاتلُهُ!

أفرغت فيه عشرَ طلقاتٍ،

تُرى كيف يحس الدمُ هذا المطرَ النارىَّ،

ينهال فجائيًا عليه، وهو يحلمْ؟!

ربما داخله قبل مجيئى، ذلك الخوفُ الغريزىُّ

فنحّاه، وألقى فى المكانْ

نظرةً، فانتبه الحراسُ،

فامتد على جبهته بردُ الأمان!

ثم دوَّتْ طلقتى الأولى،

رأيت الفندقَ المأهولَ يخلو من سوانا.

فكأنى خفت من نفسى،

وأطلقتُ، وأطلقت عليه

وهو مشدود إلى زاوية النارِ،

كما لو أنه قد وطَّن النفسَ على استقبالها حين تدمدمْ

لم يكن يهرب منى

كان قد أصبح مشدودًا بخيط غير مرئى

إلى موتٍ محتَّم

فأدار الجسد الصامت نحوى

يتقاضانى الذى يكفيه من حقدى،

إلى أن يعرف الراحة من هذا اللقاءِ المتجهِّم

آه ما بين ارتجاف الوجه قبل الطلقِ،

حتى تستقر النارُ فى اللحمِ،

ترى أىُّ حديثٍ متلعثمْ

كان يجرى بيننا؟

هل قال لى: من أنت؟!

كانت أغنياتٌ من بلادى

وقتها تلمع فى ذاكرتى

والمطر النارىُّ يعلو ويجمجمُ

مزهرًا فى صخرة الجسم المعادى

واصلاً بين ارتعاشات الدم الأعجم فيهِ

وارتعاشات الزنادِ

عاقدًا ما بيننا صلحًا نهائيًا

كأنى كنت وحشًا حينما انهرت عليهِ

شاربًا من دمه كأسًا

كأنى كنت ظمآن إلى شىء حقيقى كهذا الجرح

فاسترضعته

والموتُ يلتفُّ علينا.. ويخيِّمْ!

من أنا حقًّا؟

تُرى هل كان عدلاً

أننى لم أعطه ردَّ السؤالْ

أو لم ندخل شريكين معًا؟

هل كان من حقىَ فى هذا النزالْ

أن أرى وجهَ غريمى

دون أن أجعله يشهد وجهى؟!

كان جلادًا!

وقد جاء بهذا الوجهِ

لكنى دخلت البهوَ بالوجه الملثَّمْ

وهو حقًا يستحق الموتَ؟

لكنَّ تمام العدل أن أُشهِدَه أنى ولىُّ الدمِ.

أنى الشفرةُ الأخرى على خنجره الدامى المسمَّمْ

ربما كان إذا جاوبته قاومَ،

أو فرَّ،

أو استنجد،

أؤ ناشدنى معترفا بالذنبِ،

أن أمنحه مغفرتى.

لكنه أومأ لى إيماءةً غامضةً

ثم مضى محتميًا بالموتِ، محفوفًا بأصواتٍ تنادى

وأنا أهوِى، وأهوِى

ساقطًا فى زمنٍ يسبق هذا الوقتَ،

موصولا بشىء يتحطمُ؟

آه يا حبى الذى لا يتكلمُ!

جئتنى قبل زمانى!

ثم أخلفتَ مواعيدك حتى كدت أهرمُ

لم أصدق أنها قد منحتنِى كل شىء مرةً واحدةً
أنزلها سائقُها،
فانفلتت داخلةً ترفل فى نُبلٍ وديعٍ
وتعرَّت مثلما تفعل لو كانت تعرَّت وحدَها،
كان الربيعُ
زغبًا فى الأرضِ،
والأصواتُ تأتى بعد أن تفقدَ معناها
وضوءُ الشمس يأتى من زجاجٍ
ثم ينحلُّ ويعطى جسمَها
بقعًا طيفيَّةً تهرب منى كلما لامستُها،
حتى إذا قلت لها: من أنتِ؟ فرت
دون أن تترك لى حتى اسمَها!

آه! عشرون ربيعا

وأنا أنتظر الخطوَ الذى يهبط فى رفقٍ
وأَعتلُّ وأحلمْ
وأنا أمسك فى جلدىَ من ملمسها
ما تترك الأيامُ للعاشق،
أعدو خلف ما يهرب من صورتها
وأصد النومَ والنسيانَ عنها وأجوعْ
وأنا أطوى بلاد اللّهِ.
لا أملك إلا وردةً حمراءَ،
فوق الجسر قال المخبرُ السرىُّ من أنتَ؟
أجبتُ المخبر السرىَّ: مُغرمٌ!
هل ترى مرّت؟
فلم يدرك وأقصانى عن الجسر
دخلت البهو،
كان المخبر السرىُّ يعدو

فقذفت الوردةَ الحمراءَ

صارت طلقةً

صارت حريقًا

وهمو يعدون خلفى

وأنا ألهث إعياءً

وأذوى،

وأضيعُ!

كانت المرفأُ دارًا للجميعْ

قلت فلأعطِ النهارَ أسمًا

وأعطى الليلَ إسمًا

وجعلت القلبَ قلبين،

تعلمت الذى يجعل من وجهىَ ترياقا وسمًّا

وتعلمت كلامًا من لغاتِ الأرضِ،

أستهوى الغريبات به ليلاً
وأصطادُ الدموعْ!
صرتُ إن غنيتُ فى الأسواقِ طارت نحوىَ
الأشياءُ
أو أومأتُ فى الملهى إلى غانيةٍ
صارت على مائدتى جاريةً
أو.. أَوْقَعَتْ بى شرطةُ المرفأِ عادت
دون أن تدرك إلا شبحًا ليس يسمَّى!
ما الذى أوقعنى فى هذه المرةِ؟
هل دلت علىَّ الخمرُ؟
أم بائعةُ الزهرِ؟
أم أنهار قناعى بغتةً
وانفضح السرُّ المنيعْ!

كلهم كانوا خصومى،

البهوُ، والحيطانُ، والمرمرُ، والحراسُ،
والأمنُ الذى فى أعين النسوةِ والأطفالِ،
كانوا يتحاشوْنَ قدومى
كلهم فى ألفة صامتةٍ تشملهم
كانوا يجيئون ويمضون إلى أن يلمحونى
فيصيبُ الذعرُ ما عُلِّق فى أفواههم من كلماتٌ
ويديروا النظراتٌ
قلت: كم قنبلةٍ تكفى لكى تهدمَ هذا العالمَ الفاسدَ؟
واستضحكت فى نفسى لهذا الخاطرِ الشريرِ،
كم ألِف سنة!
سوف تمضى، قبل أن تسترجع الأرضُ بنيها
وتعودَ الأزمنةُ!
قال لى: من أنتَ؟
كانت أغنياتٌ من بلادى

وقتها تلمع فى ذاكرتى،

والمطرُ النارىُّ يعلو ويجمجمْ

مزهرًا فى صخرةِ الجسمِ المعادى

واصلاً بين ارتعاشات الدمِ الأعجم فيهِ

وارتعاشاتِ الزنادِ

عاقدًا ما بيننا صُلحًا نهائيًا،

كأنى كنتُ وحشًا حينما انهرت عليهِ

شاربًا من دمه كأسا،

كأنى كنت ظمآنَ إلى شىءٍ حقيقىٍّ كهذا الجرحِ . .

فاسترضعتُهُ

والموتُ يلتفُّ علينا .. ويخيِّمْ! . .

من أنا حقًا؟ ترى هل كان يدرى،

أنه ألقى سؤالا خَطِرا

أنه، لو لم أجبْ، يوشك أن يهزمنى

يوشك أن يرجعَ لى منتصِرا!

١٩٧١

غربـة

يا من يعيدنا إلى بلادِنا
بلادِنا العميقةِ الخُضرة
نبكى، ولو مرة
من قلبنا!

السفـــــــــر

إلى وحيد النقاش

كم تمنيتُ لو أننى يا حبيبى
قد نهيتُكَ عن هذه الكأسِ،
أوصدتُ دونك هذا الجمال
ألترامُ الذى يقتفى خطواتِكَ،
والهمجُ المحدقون بقلبكَ،
والمتبغى، والضلالٌ
كم تمنيتُ لو أننى قد نهيتك عن هذه الابتسامةٌ،
لو نهيتك عن أن تصيخَ إلى هذه الاستغاثةِ،

وهى تمدُّ إليك الظلال

وتضمك بين جناحين من خضرةٍ

بين ثديين من وَلَهٍ وأمومة

وتقودك حيث ترى ما ترى

فتنوِّرُ عينيك خضرةُ شىءٍ،

وتمسح خديك من زغب الكائناتِ نعومة

فتغذّ وأنت هنا بيننا

فكأنك سوف تمد يدًا،

وستقطف وردًا،

وتغسل وجهكَ فى نبع ماءٍ قريبٍ

كم تمنيتُ لوَ أننى يا حبيبى

قد صرختُ وراءكَ:

يا أيها الراحلُ المتعجلُ ألقِ الرحالَ

برهةً

واملأ العينَ مما يحيط بنا من قَذىً ودمامة!

إنهم يأكلون لحومَ الصغار،

ويخترعون مشانق للريح تستلُّها

ويظل القتيلُ يعيش، ويغشى المقاهى،

ويعشق زوجته، وينامُ،

ويكتبُ فى جاره للمباحث نثرًا وشعرًا

وفى عينه جثثُ الأصدقاءِ،

وفى فمه الكلمات القديمة!

إنهم ينشئون مدائن فوق الهزيمة

إنهم يعِدون بأزمنةٍ من خراب ويأسٍ

ويتخذون لها حرسا وحكومة!

فانتبه!

قد شربتَ كثيرًا، وأدمنت طول السهر

واخلطٍ الكأس تعلقٌ بقلبك من زمنِ القبح

تعويذةٌ

تستعيدك عند الخطر

وتراوح على العتبات كما علمتنا الليالْ

نلتقى مزمعين الترحلَ،

نأخذ عُدَّتنَا من عُقارٍ

ونلبس أقنعةً، ونحوم على اللحظات الحميمة

ونصير كأنْ قد وصلنا

فننهار فوق التماثيل نلثمها

ونمزق أوجهنا توبة وندامة

ثم يدركنا عقلُنا بعد حينٍ

فنصلح هيئتنا، ونقص جناحَ الخيالْ

ونعود إلى أهلنا،

فلماذا شربتَ الشرابَ نقيًا، وماذا رأيت؟

ولماذا رجعنا، وأوغلْتَ أنت؟!

إننى أدرك الآن ماذا جرى لكَ،

أشهدك الآن مستسلمًا لا كتشافِكَ،

منتقلا خلف وجهكَ فى النبعِ،

مستغرقا فى الوسامة

يتنزل حولكِ زهرٌ

وتصعد أغنيةٌ

وتطير يمامة

فترقُّ.. ترقُّ.. إلى أن تعانق وجهك فى لحظة

ثم تصحو لنا صارخًا

فإذا نحن فى الطرقات نخلِّص أقدامنا

ونطيل الحذر!

استرح يا طبيبى

إن دائى الإقامة

ودوائى السفر!

يونيه ١٩٧١

مرثية لأنطاكيـه

إلى صدقى إسماعيل

وأخيرًا دمشقُ؟!

ولكننى كنت أطلب أنطاكية

آه أنطاكية!

إنها آخرُ النارِ والعشبِ

آخرُ ما يستطيعُ الصهيلُ

أن يحوز من الأرضِ

آخرُ ما تستطيع إليه التسللَ أرواحُ أسلافِنا

كنت أشهدها فى رمادِ الأصيلْ

تتوضأ فى الحصن، ثم تصلى
وتلقى علينا عباءتها القانية!

آه أنطاكية!
حين جاءوكِ من باب بولُسَ لم يدخلوكِ،
وجاءوك فى هيئةِ الريحِ لم يدخلوكِ،
وجاءوك فى هيئة النهرِ والصيفِ،
لكنهم دخلوا متخفِّين فى هيئة الحامية!

آه أنطاكية!
أىُّ آثامنا نفذ القدرُ العَدلُ منهُ
فحقَّ علينا العقابُ
نقطع الشامَ من جبل الرومِ حتى متاهاتِ سينا
نحنِّط موتى قبيلتنا

ونردُّ مواليدَنا دون تسميةٍ فى انتظار الرجوعِ إليكِ
ونغمِس أجسادَنا فى طقوسِ العذابْ

آه أجسادنا العاصية!
كنت أشهدها فى صباها الجميلْ
تنزع العنقَ الرطبَ من قبضة العشقِ
ثم تطير إلى أن تحطَّ على شفراتِ السيوفِ
وتسقط مغسولة بدم الأغنية!
كنت ألمحها مثلما يُلمح البرقُ
أو يُدركُ الصوتُ
أو كقطيعِ خيولْ
طائرٍ فوق عشبِ السهولْ
أو على حافة الهاوية!
حيواناتُنا المتخنِّثةُ الضارية

إنها أصبحت تشتهى وحدَها

وتخاف، وتتركنا،

وتموء، وتغرق فى الحزنِ،

ثم تموت على طرقاتِ مدائننا الخاوية!

وأخيرًا دمشقُ!

دمشقُ التى ملأت لى كأسًا

وحزَّت وريدى

دمشقُ التى قدمت لى مقبرةً

وأنا كنت أطلب بعثًا

دمشقُ التى رحلت مثل أنطاكية!

١٩٧٢

تروبادور

هذا أنا أنهضُ فى مدينة بائدةٍ

أخرجُ من تحت الركامْ

أُفلت من دمِ الفريسةِ الذى يسكننى

ومن وجوه أصدقائى العنكبوتيةِ،

من تعوُّدى ريحَ سريرى،

أُلفتى ملمسَ هذا الجسدِ النائم جنبى

فاغفرى لى

كان حبنا زِنًا، وكان طفلُنا حرام!

رأيتُ مصر فى المنام

لشد ما تغيرت!

وهأنا أرحل عنكِ، عائدًا يومًا إليكِ

حينما يصبُّ نهر النيل فى برِّ الشآم!

.

أبحثُ فى قاعِ الوترْ

عن نبعِ ماءْ

عن بلدٍ أضعتهُ منذ الصغرْ

أبحث فى إيقاع حباتِ المطرْ

عن وجهها الضائعِ ساعةَ البكاءْ

أبحث فى طوالعِ السماءْ

عن قاتلى

قبل رفيقى فى السفرْ!

رأيتُ فى بعض التخومْ

مدينةً جميلةً طرقتُها

طعِمتُ من كرومها، اضطجعتُ فى خاناتها

اغتسلتُ فى مياهها.

لكننى - واعجبًا! - لم أر فيها آدميًّا

هذا إذن سَدُومْ!

قيدنى السحرُ إليها.

عدت أدراجىَ مذعورًا إلى البابِ الذى دخلتها منهُ

فلم أجد سوى تلك الرجومْ

تضحك فى العتمة منى وأنا أسقطُ مشدودًا إلى

أرضٍ هشيمْ.

وجدتها تسوخ بى حتى بلغتُ ظلمةً كثيفةً

وكنتُ فى قمة رعبى فتحسست عظامى

وإذا بها رميمْ!

إلى الجحيمّ!

الليلُ، والنهارُ، والحدائقُ الخضراءُ والبيوتُ،

والأسواق، والمرتَّباتُ، والديونُ، والجسورُ،

والفنادقُ، المخابئُ، المراحيضُ، الجرائدُ، الرسومّ

إلى الجحيمّ!

اللغةُ المطاطُ، والمضحكُ، والمروضُ، المصفِّقُ،

المشخصُ، المحترفُ، الهاوى، المناورُ المداورُ العظيم

إلى الجحيمّ!

إنى وضعتكم جميعًا يا مواطنى سَدومّ

فى قاع صندوقٍ وألقيتُ بكم إلى الجحيمّ!

أنبش أعماقَ الجذوعِ الناشفة

عن برعمٍ أو حشرة

أنبش صمتَ المقبرة

عن فرسٍ أو عاصفة

أنبش سطح الزمن الباقى على صوت انفجار

الناصرة!

رأيت فى بعض طريقى خمسةً من الفدائيين،

قلت: اتخذونى صاحبًا

فأمهلونى ليلةً

وقبل أن يأتى الصباحُ رحلُوا

وفى المساء قُتِلُوا

وقبل أن يأتى الصباحُ أقبلُوا

قلت لهم: إتخذونى صاحبا

فأصعدونى جبلاً

وأدخلونى غابةً ـ واعجبًا: ـ رأيتُ فيها القاهرة

وكنتِ أنت فى انتظارى تمسكين بيدى

وكنت تحملين عنى جسدى

وتقرئيننى السلام!

١٩٧٢

كائنات مملكة الليل

صدرت الطبعة الأولى عن «دار الأدب» بيروت. عام ١٩٧٨
الطبعة الرابعة ٢٠٠٣

كائنات مملكة الليل

أنا إلهُ الجنسِ والخوفِ وآخرُ الذكورْ
[أظنُّها التقوى وليس الخوفَ
أو أنى أرُدُّ الخوفَ بالذكرى
فأستحضرُ فى الظلمةِ آبائى
وأستعرض فى المرآة أعضائى
وأُلقى رأسىَ المخمورَ فى
شقشقةِ الماء الطهور!

تركتُ مخبأى لألقى نظرةً على بلادى

ليس هذا عطشًا للجنسِ،

إننـى أؤدى واجبًا مقدسًا

وأنتِ لستِ غيرَ رمزٍ فاتبعينى

لم يَعدْ من مجد هذه البلاد غيرُ حانةٍ

ولم يبقَ من الدولة إلا رجلُ الشرطةِ

يستعرض فى الضوءِ الأخيرِ

ظلَّه الطويلَ تارةً

وظلَّه القصيرَ!

أنسج ظِلِّى حفرةً

أنسج ظلى شَبَكَة

أقبع فى بؤرتها المحلولكة

بعد قليلٍ ينطفى الضوءُ

وتمتدّ خيوطُ الشبكة

تمسك رِجلَ الملكة!

فى الليل كان الصيفُ نائما

لماذا لم نعد نشهدُ فى حديقةِ الأرملةِ الشابَّة زُوارا؟

لماذا لم تعد تهبُّ فى أجسادنا رائحةُ الفلِّ،

ويمشى عطرُها الفاتر فى مسامِّنا؟!

فى الليل

كان الصيفُ، فى حديقةٍ ما، نائمًا عريانَ

كان رائعا بمعزلٍ عنا

بعيدا كصبىٍّ صار فى غيبتنا شابًا جميلاً

يعبر الآن بنا ولا يرانا

آه!

كان الصيفُ يملأُ الشهورَ

من غير أن يلمسَنا!

تلك عناقيدُ الندى

ترشَح فى أرنبةِ الأنفِ

وفى تُويجةِ النهدِ الصغيرْ

والجسدُ الوردىُّ يستلقى على عشب السريرْ

والفراشاتُ على الأغصان زهرٌ عالقٌ

وعتمةُ البستان لونٌ نائمٌ

فأمكنينى منكِ يا مليكتى

إن أكُفَّ شجرِ الصبارِ برعمت

وكاد الليلُ ينتهى

وما زلنا نطير!

أنسج ظلى بُرعما

وكائناتٍ شبقة

أبحث عن مليكتى

فى غيمةٍ أو صاعقة

أطبع قبلتى على

خدودها المحترقة

منتظرًا نهايتى

منتظرًا قيامتى

فراشةً، أو يرقة!

آهٍ من الفُلِّ الذى يعبق فى واجهة الدارِ،

من الضوءِ الذى يَشعُّ كالماسات فى مفارق النخل،

من الظلِّ الذى يلعق • فى الماء تجاويفَ الصخورْ!

من اليمامات التى تهدل فى الذكرى

وتستوحى جمالنا المحجَّب الأسيرْ!

من قطرةِ الماء التى ترشح فى آنية الماءِ

كوجهٍ من نقاءٍ خالصٍ

يطلع فى الصمت، وفى الظلِّ القريرْ

يعشق فى المرآة ذاتَه سويعاتِ الهجيرْ!

آهٍ من الموت الذى يظهر فى رائعةِ النهارِ لصًا فاتنًا
فتخرج النساء ينظرن إليه والهاتٍ
ويعرّينَ له فى وهج الشمس الصدورَ والنحورْ!

الليلُ أُنثى فى انتظارى
هذه مدينةٌ عطشى إلى الحبّ
أشمُّ عطرَها كأنه مواءُ قطةٍ
أرى رقدتَها فى اللؤلؤ المنثورِ
فى حدائقِ الديجورِ
آهٍ!
كيف صار كلُّ هذا الحسنِ مهجورًا
ومُلقىً فى الطريق العامِّ
يستبيحه الشرطىُّ والزانى!
كأنى صرتُ عِنِّينًا فلم أُجبْ نداءَها الحميم

المستجيرُ

تلك هى الريحُ العقورٌ
أحسُّها تقوم سدًا بين كل ذكَر وكل أنثى
إنها السمُّ الذى يسقط بين الأرضِ والغيمِ
وبين الدمِ والوردةِ
بين الشّعرِ والسيفِ
وبين اللهِ والأمةِ
بين شهوةِ الموتِ
وشهوةِ الحضورْ!

أنسج ظلّى مدنًا مهجورةً
ومدنًا معادية
أبيضُ فى الأحلام والأرحامِ دنيا ثانية
ليدخلوها إن أتى الليلُ فُرادى

ينظرون فى مراياها النفوسَ الخاوية

والأوجهَ الأخرى التى صارت لهم

بعد اتصالِ الأمهاتِ بالجيوش الغازية

الخوفُ صارَ وطنًا

وصارَ عملةً

وصار لغةً قوميةً

صار نشيدًا وهويةً

وصار مجلسًا منتخبًا

والخوفُ صار حامية!

آه من الرغبة حين فاجأتنى آخرَ الليلِ

كأنما هى الوحىُ السماوىُّ

أو انَّها النذيرُ

حين ترجلتُ، وأطلقتُ حصانى، وركضتُ هائماً

تدلنى حاسةُ شمى فى الظلامِ

هاهى الذكرى تضيع الآن منى

أفقد الصوابَ تحت أنجمٍ تُقطَف باليدين

لم أعد أنا الفارسَ

أصبحتُ الحصانَ الجامحَ الصاهلَ فى

إيقاع ركضِهِ الجنونّى المثيرْ

النجم لا يُقطفُ باليدينِ

لا تلين لى حجارةُ الأهرامِ

لا تُزهر لى شجيرةُ الذكرى

ولم أزل أدورُ، وأدور، وأدورْ

أدور فى إيقاعِ ركضىَ الجنونىِّ المثيرْ!

تقول لى فى صفحة الكأس طفولتى الغريقة

تظلّ عطشانَ إلى نهاية الخليقة!

تقول شهرزاد كلما اشتهيتُ طفلةً:

ـ مولاى!

إن العنبَ الأخضرَ لا يُشعلُ مالا تشعلُ الخمرُ

العتيقة!

كانت إشاراتُ المرور

صريحةً

قتلتِنى أيتها البلادُ

فى عشٍّ غرامكِ الملىء بالكلاب والنمورْ

والكوابيسِ، المحاطِ بالتوابيتِ

المغَطَّى بهياكل السلالةِ التى انحدرتُ منها

فاتركينى أغتسلُ فى الدمِ

أزرعُ نطفتى فى الريحِ

ها أنا أشمُّ الآن يا مليكتى عطرَكِ فى الخوفِ

أحسُّ لاقترابك الحميمِ لوعةً

فساعدينى أن تكون لحظةُ العناق لحظة العبور!

فى الليل كان العنكبوتُ

يأكل جدران البيوتُ

وكنت عاجزاً فهرولت إلى الأفقِ

وأسندتُ إليه قامتى كأننى مئذنةً

ثم حززتُ عنقى بمديةٍ

فانسريت حولى نهيراتُ دماءٍ

وتصايحت على رأسى الصقورُ!

أنا

. إله الجنس والخوف

وآخر الذكور!

اغسطس ١٩٧٣

بطالـة

أنا، والثورةُ العربيّةُ

نبحث عن عملٍ فى شوارع باريسَ

نبحث عن غرفةٍ

نتسكع فى شمس أبريلَ

إن زمانـاً مضـى

وزمانًا يجىءٌ!

قلت للثورةِ العربيةِ:

لابد أن ترجعى أنتِ

أما أنا

فأنا هالكٌ

تحت هذا الرذاذِ الدفيءِّ!

باريس. أبريل ١٩٧٤

صورة شخصية للسيدة ص.ك

الآن أنتِ في نيويوركَ

قضيتِ سهرةً طائشةً

ثم خرجتِ تبحثين عن هلالِ رمضانْ

في الرُّقعِ التي تبقّت من ثيابِ اللهِ

فوق الناطحاتِ، والدُّمى

واللافتاتِ، والدخانْ!

كان السريرُ خشَبة

وللمراهقاتِ أجسادٌ كأجساد المظليينَ

كان القردُ والجنرالُ فى البهو يُتوَّجانِ

والغزالُ والثورةُ يسقطانِ

فوق الحلبة

قبل بدايةِ الرِّهانْ

وكنت تشتهين فى السرِّ نيويوركَ

وتكرهينَها

وكنتِ فى الوحشةِ تسألينَها:

ماذا تبقَّى لحصان العربة

بعد نفاد الشهوات كلِّها؟!

الآن أنتِ فى دمشقَ

تروين حلمًا غامضًا

وتتبعين الشاعرَ الصعلوك فى الليلِ

تغنين له موشحا أندلسيًا

ترشقين كالهنود الحمر ريشًا

ترقصين الدَبكة

وتسقطين منهكة

وأنتِ فى طوافك الليلىّ

تدلفين للمسجد خلسة

وتشعلين شمعةً لخدَّام المكانْ

احكى لنا - أيتها الشَّابةُ - أخبارَ الزمان

كان الطريق مُتربًا

وعجلاتُ المركبة

تفترس العشبَ

وللبلاد وجهٌ غيرُ وجه أهلها

والشمسُ

ملقاةٌ

بلا ظلّ

وكان البدوُ يَعَدُون وراءنا

ملوِّحين بالبضائع المهرَّبة

وكنتِ كلما هممتِ بدمشقَ،

واشتعلت بدمشقَ

انقشع الحنينُ عن هروب أصداء المصلِّين القدامى

وانطفاء الشمعدانْ

الآن

أنتِ تدخلين القاهرة

ترتجلين كل يوم مشهدًا

وتضعين كل ليلة قناعًا

تصبحين قطةً وتتمسَّحين فينا،

ذئبةً

وتنهشين لحمنا

وبومةً

وتصبحين عندليبًا

تقعين فجأةً

وتفقدين الذاكرة

ها أنت تفتحين عينيكِ على وجوهنا

للمرة الأولى

وها نحن عرايا

ليست الحريةُ الشىءَ الذى نطلبه الآن

بل الصمتُ

وليس المجدُ

إنما الأمان

تلك هى الأرضُ التى عاد إليها الصيفُ

والشمس التى تبردعامًا بعد عامٍ

ويقال إن ما بين المحيط والخليج جنّتان

كانت القهوة سُمًّا

والعيونُ مذنبةٌ

والماءُ لا يَغسِلُ

والقهر أزاهيرٌ على الوجوه خضرٌ

والأكاذيبُ لعابٌ نازلٌ على الذقون

والمخافاتُ

تَرِفُّ

كرفيف الأغربة

و «المهلُ يغلى فى البطون»

ها أنت قد فزعتِ

وانطلقت نحو النيلِ تشهدين فى صفحتِهِ

ما صنعتْ بوجهكِ العدوى

وها أنت رأيتِ وجهك الضائع فيه

ودخلتِ التجربة

لقيتُها - آخر مرة - بإحدى المدن المضطربة

واتّهموها .. بالجنون!

مارس ١٩٧٣

ثلج

البياضُ مفاجأةٌ

حين عرَّيت نافذتى

شدَّنى من منامى النديفْ

الذى كان يهطل متَّئدًا

ما نحًا كل شيءٍ نصاعتَه

ومداه الشفيفْ

شدَّنى.

كان دوامةً من رفيفْ

جذبتنى لها

فرحلنا معًا وانطلقنا

نرفرف من غير ظلّ

ونرقص بين الصعود وبين الهبوطِ

يراودنا العشبُ

والشجراتُ العرايا

ومتّكآتُ النوافذِ والشرفاتِ

وأيدى الصغارِ وأيدى التماثيل

والكائناتُ المطلة حول السقوفْ

بياضًا تقلَّبَ فى ذاتهِ

كرفوف من البجعات على نبع ماءٍ

يمسِّحن شهبةَ أعناقهن الطوالِ

على ريش أجسادهنَّ الوريفْ!

ثم أشرقت الشمسُ من فوقنا

فسقطنا معا

وانحللنا معا

فى رتابةِ هذا السوادِ الأليف!

باريس - ديسمبر ١٩٧٤

ثلاث أغنيات للمقاومة

١ . الحديد والجسد

إنه العصرُ
هذا الحديدُ الذى يتطايرُ ملتهبًا
فى الهواء الذى كان يحملُ ريشَ اليمامِ
وخضرةضوءِ القمرْ
إنه العصرُ
هذا الحديدُ، وهذا الشررْ
فاحتضِنْهُ
ودعْ جسمَه يخترقْ لحمك الحىَّ
يا وطنى المتخلفَ!

كى تتحضَّرَا!

ها أنذا ليلةَ الحربِ

أبلو جنونَ السهرْ

كلما صفَرتْ طلقةٌ فى المدى

أتحسس وجه المدى

ما سحًا دَمهُ بيدى

قائلاً لجذوع الشجرْ

اصبرى

ياجذوع الشجر!

٢. علم القنطرة شرق

كُلُّ راياتِنا قِطَعٌ من قماشٍ

وأنتَ العلمْ

مصرُ أنجبت الناسَ

والحبُّ أنجب أبناءَهم

واصطفى المجدُ أجملَهم

واهبًا لكَ أرواحَهم يا علمْ

كلما نقلوا فى الطريق إليك قدمْ

نسجوافيك خيطًا

ومن كلِّ قطرةِ دمْ

رسموا فيك لونًا

فَهُمْ أنتَ

ما برحوا ينقصونَ، وتزدادُ

ينحدرون، وتَعلُو

لقد قَسمُوا فيك أنفسهم

جَسدًا ضاريًا جذرَه فى الرمالِ

وروحًا مرفرفةً فى القممِ!

قل لنا يا عَلَمْ

افتدونى!

نجبْك نَعَمْ

ونجبْك نَعَمْ!

٣ . دمشق تقاتل

بأىِّ شىءٍ تَدْفَعُ العروسُ عن خبائِها

جحافلَ التترْ

تحصبِهُم بالنَّسبِ الشامخِ؟

أم بالزَّهرِ الطالعِ من ردائِها؟

أم بحجارةِ النجومِ والقمرْ!

رقيقةٌ أنت

أمام كلِّ هذا الموتِ

يا دمشقُ!

مثل زهرةٍ فى الثلجِ

لكنّ ما الذى يفعلُهُ الموتُ العَكِرْ

لقطرةٍ من الدمِ النقىّ

صارت جمرةً مشبوبةً فى الرمل؟

ماذا يفعلُ الموتُ لهذا الفرحِ المولودِ كلَّ لحظةٍ
من قلبِ أحجارِك
من ضلوع أنهارِك؟
ماذا يفعل الموتُ لأطفالٍ يردُّون عليه بالأغانى
ويزيدون التصاقًا بالتى تكشف عن جمالِها الرائع
ساعةَ الخطرْ!

هذا هو الوادى
أراه الآن يزدادُ اخضرارًا رغم أنه الخريفُ
وأرى المنازلَ العتيقةَ البيضاءَ تزدادُ تلاصقًا
وأسرابُ العصافير تهز الضوءَ فى أفيائِها
وتُفصح النوافذُ الآنَ عن النساءِ والوردِ
وعن مخادع الدارِ
وعن أشيائِها

وهؤلاء عصبةُ الفُتّاك، من رفاقِ عمرى

يَرجعون للصبا

ويملأون عتمة الليلِ الفروسىّ حنيناً وسفَرًا!

مَن هذه العروسُ فى الحرب

تصولُ، وتجولُ

فى المدى الساطع من لألائها؟

غزالةٌ، أم فرسٌ؟

ترقص، أم تضرب بالسيفِ؟

تغنى أم تنادى الصِّيدَ من آبائِها!

وهل لديكِ غيرُ هذا الحسنِ تدفعينهم بهِ؟

لكنَّ للجمالِ وجهَه البطولىَّ

ألم ننهلْ من العشقِ بما يكفى مؤونةَ السهرْ؟

بلى!

وقد لَجَّتَ بنا النشوة حتى رؤية الموت

وقد لجَّتَ بنا حتى ازدراء الموتِ

ها أنتِ انتشيتِ

وتخضَّبتِ بأسماءِ المطَرْ

ثم خرجتِ للتَّتَرْ!

أكتوبر ١٩٧٣

لقطة تذكارية للقاء عابر

كُنَّا كراكِبَىْ قطارْ
يلفحُ كلٌّ منهما رفيقَه بصمتِهِ
ونظراتِه القصارْ
مؤتنسيْن دونما علامةٍ
وراغبيْنِ فى الفرارْ!

حين خرجتُ أولَ المساءِ
مسلوبًا كأنى رجلٌ غيرى
وهذه مدينةٌ غريبةٌ علىّ
كانت هناكَ امرأةٌ مجهولةٌ

فى طرف المدينةِ الآخرِ تسعى
ـ دون أن تدرى ـ إلىّ

كنتُ أرى مثلثاتِ قممِ الأهرامِ فى الغربِ
ترقُّ مثلَ غيمةٍ، وتَفنى
وذؤاباتِ الشجَرْ
تلفُّها أجنحةُ الليل رويدًا
والمصابيحُ تضاء بغتةً
فيختفى ما كان يبدو فى النهارْ
وتنهض المدينةُ الأخرى من العتمة والنورِ
ويُقبلُ النَّهَرْ
يعرض فيها جسمَهُ العارى
وينفثُ البخارْ
على مياه تتوالدُ المصابيحُ عليها

صُوراً بعد صُوَرْ

ويفتح الشُّرطُى للمجهولِ، والصدفةِ

أبراجَ المدار!

لعلَّنى حاذيتُها على الطوارْ

أو فى إشارةِالمرورِ

فى طريقِنا إلى حيث التقينا.

كانت الليلةُ فى آخرها

حين بدأنا - دون أن ندرى - الحوارْ

وقبل أن نكمله عاد النهارْ

فلاذ كلٌّ بالفرارْ!

١٩٧٣

أســرار

«إلى جـرحى الحــرب العـرب الذين
صـــادفـــتــهم فى شـــوارع باريس»

آهِ!

ها أنتمُ تكشفونَ لىَ السرَّ وحدى

وكنتمْ تسيرون فى المدنِ الأجنبيَّةِ،
تُخفون أسرارَكم فى ثيابِكُم الداكنةِ اللونِ
تحت سواد العويناتِ
ها أنتمُ تكشفونَ لى السرَّ وحدى!

هل رأيتمْ دمى يتشمَّمُ فيكم صباهُ
لمحتم منازلكم تحت جلدى
فكشفتم أمامىَ ماتسترونَ؟

وكنتم تسيرون سِربا جميلاً غريبًا
يراوغُ كلَّ النداءاتِ
يُخفى وراءَ تهدُّلِ ألوانهِ
دَمْعَه الغائرَ المتجمِّدَ

كانت دماؤكمُ تتدفَّقُ غافلةً
فى الدروب التى ألِفَتْها
وكنتم تردُّونها عن يدٍ ذَبلَت
أعينٍ مُلِئتْ خَرزاً دامعاً
- أينَ أعطيتَ عينيكَ؟

تحت النجومِ التى سطعت مَرَّةً فوق خدى!

- ولمن أنتَ أعطيتَ ساقَك؟

أعطيتُها للذى سوف يولد بعدى!

أُنظروا!

أيها القادمون بأنصاف أجسادهم

مِن قُرىً، ستظلُّ تقاسمُ أبناءها لحمَهم

أُنظروا!

كم هى الآن فاتنةٌ هذه المدنُ الأجنبيةُ!

كيف تكونُ بها حاجةُ الغرباءِ لأقدامِهم ولأذرعِهِم!

آهِ!

لكنكم تعبرون جَمالَ المدينةِ مثلَ طيورٍ سماويةٍ

متلفعةٍ بنبالتِها

وأنا لا أزالُ أُتابعُكم

ضائعاً فى شوارعِها

أتحسَّسُ لحمى الذى يتعفّن فيها

وأَدخلُ فى الليلِ لحدى!

باريس. مارس ١٩٧٥

إيقاعات شرقية

أغويتَتى

يا أيُّها الوجهُ الحسَنْ

ولم تقدِّمْ لى الثمنْ

لا طَرحَةَ العُرسِ،

ولا

فرحةَ أعضاءِ البدنْ

وكان شَعرى خيمةً

وكان نهداى عشيقيْنِ

وكانت سُرَّتى كأساً

وكانت فخذى

إبريقَ خمرٍ ولبن!

وذبحونى!

آه أهلى! ذبحونى!

لم تقدمْ لى الكفنْ

يا أيها الوجهُ الحسَنْ

وكان شَعرى

كان نهدایَ

وكانت جُثَّتى

بنهشها الايقاعُ

يَـدُّ !

٦/٨/ ١٩٧٣

آيات من سورة اللون

١ . إلى الرسام سيف وانلى

يرقد العالمُ فى بَلُّورةٍ يغسلها ماءُ المطرْ
ها هى اللحظةُ تأتى
أهو اللونُ، أم الإيقاعُ ما تصطادُهُ،
أو ربما تُسلمه نفَسكَ
حتى يغمر الموجُ التجاعيدَ،
ويلهو بخصيلاتِ الشعَرّ!

يهبط اللونُ
من الياقوت،
للفضةِ،
للعشبِ،
ويعلو
سُلَّمُ الصوتِ
فقاقيعَ من الأضواءِ
لا تلبثُ حتى تنفجر

أهو اللونُ، أم الإيقاعُ ما يحملك الآنَ
على هذا البكاءِ الفذِّ؟
أم بُعدُ الصُّور؟!

يرقدُ العالمُ فى الزاويةِ الأخرى من المرسم

وَعَلاً نادراً

ينعم بالألفةِ والدفءِ

ويجترُّ الفِكَرْ

تدخل العاشقةُ الفندقَ فى حَزمِ

وتُعطى نهدَها للرجلِ المملوءِ صمتاً

قبل أن يدهَمه وقتُ السفَرْ

ينقر الديكُ نُجيماتِ السَّحَرْ

يرقص البحارةُ الأغرابُ فى الملهى

ويبكون فُرادى

ويعودون زُمَرْ

أهَو اللونُ الذى كنتَ تراهُ؟

أهوَ ذاتُ الصوتِ؟

لكنكَ لا تملكُ أن تُوقِفَ ركضَ الغيمِ فى وجه القمَرْ

فانتظر أن يَرجِعَ الصيفُ

وحاول مرةً أخرى مع الضوء

الذى لا ينتظر!

١٩٧٤/١/١٨

٢ - إلى الرسام عدلى رزق الله

قطرتان من الصحوِ
فى قطرتينِ من الظلِّ
فى قطرةٍ من نَدى

قُلْ هو اللونُ!
فى البدء كانَ
وسوف يكون غدًا
فاجرح السطحَ
إن غدًا مُفعَمُ
ولسوف يسيل الدمُ!
سنغنى لكم أيها السادةُ الغرباءُ
غناءً رتيباً

على وترٍ مُفردٍ يتردد بين مداريْه

كالقمر العربىّ

هو الأبيضُ الأسودُ، اللؤلؤُ المعتِمُ

سنغنّى أغانينا الخُضرَ

لكننا سنفاجئكمْ بقنابلَ موقوتةٍ

كان أسلافُنا خبّأوها مع الخبز والخمرِ

فى خشبِ المومياتْ

لكى تتفجَّرَ فى غُرف الدَّفْنِ

حين تحينُ مواعيدُ عودتهم للحياة

وردةٌ أم فمٌ؟

هذه الورقاتُ التى تمسح الآن صدرى

وقُبَّرةٌ تتنفس تحت الأصابعِ

أم برعمٌ

نهدُها؟

قطرتانِ من الصحوِ
فى قطرتين من الظلّ
فى قطرةٍ من نَدَى

هكذا يزرعون البيوتَ
فتكبر مثلَ الكُرُنْبِ
أليس سوى الأخضرِ الطُّحلُبىِّ
أو الأصفر المعدنىّ؟
تعالوْا نلوِّنْ كما نشتهى هذه الأرضَ
أو نشعل النارَ فيها
كما يشعلون الصواريخَ فى ليلةِ المولدِ النبوىِّ
فتحملنا وتطيرُ
وتُسقِطنا مَطراً قُزحَياً
وتزرعُنا شجراً موقدا

ها هو الهرمُ

رَحِمُ

فتعالوا نولدُهُ وَلَدا !

قطرتان من الصحوِ

فى قطرتين من الظلِّ

فى قطرةٍ من نَدَى

تركب الريشةُ الريحَ فى أثَرِ اللونِ

تلقُطهُ شذرةً شذرةً

من مسامير أحذيةِ الجُندِ

من رهَجِ الذكرياتِ السحيقةِ

تدخل فى إثره بطنَ أرْزَةِ لبنانَ

تشتُفُّ نُطفَته المستكَّنةَ نَسْغاً فَنَسْغاً

وتجمع أشلاءَه حُزمةً حُزمةً

ثم تدعوه أن يتنفسَ

لكن سُدى!

إن لوناً هنا ينقص اللونَ

كى يتنفسَ

لونٌ كحَبٍّ اللّقاحِ الذى لا يُرى

كالأوزِّ الذى غاب فى زَبَدِ الأفقِ

قُل إنه الطينُ

فلينظر الطينُ مِمَّ خلقناهُ!

قُل هو ماءٌ

وما هو ماءٌ، ولكن دمٌ!

نخلةٌ أنتِ

أم سُلِّمٌ؟

وأنا خِنجرٌ طالعٌ

أم هلالٌ تحدَّرَ بين الترائب

حتى اختفى فى الذوائب

ثم بدا

جسدا

وارتدى جسدا!

قُل هو اللونُ

فى البدءِ كانَ

وسوف يكون غدا

فاجرح السطحَ

إن غدا مُفعمٌ

ولسوفَ يسيلُ الدمُ!

باريس. ٥ يناير ١٩٧٧

القيامة والطفل الضائع

لكأنها الرؤيا!
قيامتُكِ المجيدةُ

ينهض النهرُ القديمُ بضفّتيه واقفاً
حتى نشاهدَ فى السماء مصبَّهُ
نافورةً خضراءَ
والشلالُ يصعدُ من منابعهِ الخفيّةِ راعفاً
متفجّراً بحرارة الماء المضفَّر بالمعادنِ
حاملاً معه المدائنَ، والأهالىَ، والقُرى
والطيرَ، والحيوانَ

يا أرجوحةَ الميلادِ لا تتوقّفى

دُورى

وسوخى فى عروقِ الطينةِ العطشى

وعودى للصعود

ورفرفى

وَلدِى الذى تعدين من ألْف بمولده

وشُقِّى عنه تُربَتكِ العصيَّةَ

وانزِفى!

مَن علَّم الطفلَ اجتيازَ النهرِ؟

تلك هى القطاراتُ التى كانت تمرُّ على قرانا

تسلُبَ الأحبابَ أحباباً

وتمضى فى الظلام مَهيبةً

لألاءةَ الأنوارِ

كالأقدارِ، لا تلوى على شىءٍ .

وتتركنا على طرفينِ

يزدادان بُعداً، واستحالةَ رجعةٍ

مُتشبّثِينَ بذلك الخيطِ الذى يمتدُّ بين وجوهنا

والأوجهِ الأخرى

إلى أن نستحيلَ مَعاً إلى بُقَعٍ

تغور، وتختفى!

تلك القطاراتُ التى دهمت منازلنَا الوديعةَ

مَن يقول لها قِفى!

ويُعيد لى صمتَ الظهيرةِ

والطنينَ اللامعَ المعقودَ من أَصداءِ أصواتِ الحقول

وما تُغنّى كائناتُ الدارِ

وهى تهيم فى أنحائها

نشْوى

بما تُلقى عليها الشمسُ من وهجٍ مثيرٍ

يستدير مُشَعْشَعَ الأضلاع كالماسِ المُعلَّقِ
والثرى الفوَّاحُ ينبض بالأجنَّةِ ذاهلاً
نعسانَ
تحت تموّج الآلِ الذى تتحل فيه الشمسُ
أبخرةً مُلَوّنة، تشِفُّ شُفوفُها
عن قريةٍ ريَّانةِ الأعضاءِ
خَدَّرَها الشَّذى الوهاجُ
فاضطجعت إلى تاريخها السرِّىّ
والهةً
تبادله النواحَ العذبَ
مَن سيردُّنى!

وأراك فى المدنِ الشقيَّةِ
كنتُ أحسِبُ أننى وحدى الذى ضيعتُ فى طرقاتها وجهى
وأنى سوف أخلعُ ذاتَ يومٍ نيرَها وأعودُ

لكنى رأيتُ النهرَ مثلى ضائعاً فيها
مريضاً،مستجيراً فى حوائِطها
رأيتك، آه يا أُماهُ!
كنتِ حمامةً خضراءَ
تبكى فوق قافلةٍ من الأسرى تجرّ صليبها أبداً
وتخترق المدينةَ
والرجال مُصفَّدون إلى بهائمهم، عرايا
سادرون، مُخدَّرون بموتهم
يتناسلون جماعةً فى طقسه الدينىِّ
كنتُ أراكِ فوق تقاطعِ الطرقاتِ
فوق تصالبِ الليلِ المُنيخِ على النهارِ
إلهةً مصلوبةً
يأتى الجنودُ لها بإخوتِها الرجالِ
ليرجموها

ثم ينفلتون خوفاً من ضراعةِ وجهها المستعطفِ

وأظلُّ أهربُ

ضائعاً بين القطاراتِ التى مَدَّتْ على جسدى الحديدَ

ومزَّقتنى فى المدائنِ

راحلاً فى غير عمرى

ناقلاً فى كل يومٍ جذرىَ العريانَ

من ثلجٍ إلى ثلجٍ

وحين أمدّ طرفى مرةً أخرى ورائى

تُقبلينَ

أراك تختلطين بالغيمِ المسافر راجعاً لبلادِهِ

وإذا يدور بىَ القطارُ وراءَ كل مدينةٍ

ويلجُّ فى الصمتِ النقىِّ

أراكِ مُفردةً تشقّين المدى

يا نخلةً!

فى وحشةِ الصحراءِ

طالعةً من الفردوسِ

حاملةً على الرأسِ الجميلِ بحيرةً

تأوى لها السفُنُ الغريبةُ والطيورُ

وإذ يمرُّ الأنبياءُ مشرَّدين بها

يقالُ لهم:

ألا هُزُّوا إليكمْ جذِعَها

إنى هززتُ إلىَّ جذِعَكِ، لم تجيبينى!

وَضِعتُ، ولم تَرُدِّينى!

وها هو طَلْعُكِ الوهاجُ بعد اليأس يَشرقُ

فاغفرى

واسترجعينى من زمان الموتِ

رُدّينى إليكِ

أصِرْ هباءً فيكِ

ماءً

زهرةًفى رملتيكِ

دويبةً

إنى أشيخُ، وأنطفى!

مَن علَّمَ الفقراءَ أن يتدرَّعوا بزنود قتلاهمْ

وأن يتقدَّموا فى جسمِ مصرَ المستجيبِ لهم

كما يتقدم المحراثُ فى الأرضِ الخصيبةِ؟

إنه الفرسُ الإلهىُّ الذى يأتى إلينا فى الربيع مجنَّحاً

فيرشّ خضرتَه على الوادى

ويركضُ فى اتجاه البحر حتى يلتقيه أمامَهُ

فيشِبُّ من فوق اثنتينِ على الغيومِ الزرق

يضربُها بحافره

إلى أن يقدحَ الشررَ المطيرَ

ويشفىَ الظمأ الوبيلَ

ويشتفى!

متفجراً بحرارة الماء المضفَّر بالمعادنِ

حاملاً معه المدائنَ، والأهالى، والقُرى

والطيرَوالحيوانَ

يا أرجوحةَ الميلاد لا تتوقَّفى

دورى

وسُوخى فى عروق الطينة العطشى،

وعودى للصعود

ورفرفى

ولدِى الذى تعدِينَ من ألْفٍ بمولدهِ

وشقِّى عنه تربتَكِ العصيَّةَ

وانزفى!

باريس. ١٧ - ١٨ يناير ١٩٧٧

چيرنيكا

أو

الساعة الخامسة

خطبة لوسياس الأخيرة:

كان لوسياس* على سجادةِ البهو قتيلاً
هذه خطبتُه الأولى
التى توَّج فيها بامتشاق السيفِ أُغنيَّاتِه للحقِّ
لكن بعد أن فاتَ الأوانْ
سقط السيفُ من الكفِّ التى كمْ رَفرفَتْ
فوق رؤوسِ الناسِ بالحكمةِ!
فى الستينَ يا لوسياس

(*) خطيب وسياسى إغريقى.

لن تُحسنَ تلك المهنة الأخرى

ولو صرتَ اشتراكياً

وقاسمتَ أرقّاءَ أثينا الخبزَ والخمرَ

وهل كنتَ أخذتَ القصرَ بالسيفِ

لكى تمنَعه بالسيفِ؟

لا بأس إذن

أن يقتّلَ الجندُ خطيباً

تحت سقف البرلمانّ!

بحارة ماجلان:

كانت الشمسُ التى تلفحنا فوق مدار السرطانْ
زهرةً مقرورةً
فوق مدارِ الجدىِ

ليست هذه الأرضُ إذَنْ تفّاحةً
بل صخرةٌ تُفلِتُ منا
فى التقاويم التى لم نكتشفْ إيقاعَها الصعبَ
فمن يوقفُ هذا الدورانْ
ساعةً
ندفن ماجلاّنَ فيها
ونشمُّ الريحَ، هل تحملُ طعمَ الشاطىءِ الآخرِ؟
كم تبعدُ شيلى عن نيويوركَ
وعن موسكو؟

وكم قبرٍ من الساحلِ للساحلِ؟

كم مِيلٍ تُرى بين الكلاشنكوف والأيدى

وكم يبعدُ مبنى البرلمانْ

عن سلاحِ الطيرانْ!

بابلو نيرودا:

ها هوالثورُ الخرافىُّ يقوم الآنُ من لوحات بيكاسو
ومن أشعارِ لوركا
بينما أصبحتَ شيخًا
عاجزاً عن أن ترى روعتَه الوحشيةَ البِكْرَ
وتلقاه بذاتِ العنفوانْ
فى الثلاثين التى لم تتكررْ أبدا، كنت تناديهِ
وتغويه بزخّات السهام الحمرِ أن يأتى،
وتعطيه الأمانْ
واقفاً فى ليلِ غُرناطةَ بالجيتارِ.
أطلَعْتَ رياحينَ الشبابيكِ
وأيقظتَ عصافيرَ الكتدرائيةِالخضراء
فى تلك الثلاثين التى لم تتكررْا

مَن يغنِّيك النشيد الأمميَّ الآنَ

مَن يُدّنيكَ من أرضِ الهنودِ الحُمرِ

مِن رائحة النِّتّراتِ والخبزِ ومن ليلِ المراعِى

لتشمَّ النارَ فى العشبِ الشتائىِّ

ومن يعطيكَ أسماءَ الذين استُشهدوا قبلَكَ؟

فى الستين يأتى الثورُ فى هيئته العصريةِ النكراءِ

فى حُلَّتهِ الصفراءِ يأتى

بينما أنتَ هنا وحدَكَ

مُلقىً فى فراش المرضِ الملعونِ

ماذا؟

قد تأخرتَ كثيراً أيها الثورُ الخرافىُّ

تأخرتَ كثيرا

أيها الثورُ الجبانُّ!

المشهد الأخير من فيلم Z:

كان نُوَّابُ الأقاليم يَشُدُّونَ على الأعين ظِلَّ القبَّعاتِ
السودِ فى خوفٍ فكاهىٍّ
وينسلُّون فى الليل فرادى
تلك سياراتُهم مذعورةً تمرقُ كالفيرانِ
فى مُنعَطَف الوادى الذى يمتدُّ مثلَ الأفعوانْ
والرئيسُ الاشتراكىُّ على سجّادةِ البهوِ
بنظّارته، شيخٌ وحيدٌ
هجرتْهُ هيبةُ المنصبِ
والحراسُ قتلى حَولَهُ
والدمُ ما زال طريًّا
وجنودُ الانقلابِ الجامدو الأوجهِ
يُلقون على جُثّتهِ القبضَ
ويصطفُّون كالأعمدةِ الجوفاءِ فى البهوِ

ولن تمضى سوى بضعةِ أيامٍ

وتأتى فِرَقُ التنظيف كى تغسِلَ هذا الدمَ بالماءِ

وتمحو من على الجدران

آثار الدخانْ!

نوفمبر ١٩٧٣

عرس المهدى

في رثاء المناضل المغربي عمر بن جلون
الذى اغتالته الرجعية المغربية والإشارة
إلى المهدى بن بركة

يستطيع ابنُ جلُّونَ أن ينهض الآنَ
فالشهداءُ يموتون، كى يَفرغوا للسهرْ
عِمْ مساءً عُمرًا!

يتململ فى رقدته عمرُ
وينهض نصفَ نهوضٍ
محتضناً فى يده قلباً

أو عصفوراً مبتلاً

ويصيخ لصوتٍ يعرفُهُ

يفجؤه الصوتُ، الذكرى

- المهدىّ!

ويرتقيان معاً درَجَ الزمنِ السِّرِّىِّ!

يستطيع ابن جلُّونَ أن يبدأَ الآنَ

فالفقراءُ يعيشون فى أُمَّةِ الفقراءِ

التى لا تموت، ولا تندثر!

يتذكر عمرٌ قَيساريَّةَ غرناطةَ

إذ كان عجوزاً سقَّاءً

ينظم شِعراً ملحوناً، ويغنِّيهِ

عن قُرب رجوع المهدىِّ، وفكِّ الأسرى

وقضى شيخوختَهُ فى باب الجامع مُنتظرا!

وابن جلُّونَ من جسدِ الأرضِ

من كيمياءِ الربيعِ

تحدَّرَ نهراً

فماذا على النهرِ لو صار غيماً

وماذا، لو الغيمُ صار مطَرْ

آه!

زغرِدْنَ للعُشب يا أُمهاتِ الضحايا

وخضِّبْنَ شيبَ جدائلِكن بماءِ الزّهَرْ!

يتذكَّر عمرٌ «وُجدَةَ»

إذ كان صبياً جوعان ضئيلا

يستوقفه كل صباحٍ تمثالُ الجنرالِ الرومىِّ

ويسأله: مَن أنت؟

فلا يسطيع جوابا

حتى تأخذه الشرطةُ للتجربة الأولى

وتمرُّ على التمثال بهِ

فيقول له الجنرالُ: أجبْتَ!

يستطيع ابنُ جَلُّونَ أن يُفلِتَ الآنَ من أعينِ المخبرينَ

وأن يتنقل فى الأرضِ

دون جوازِ سَفَرْ!

يتذكر عمرٌ كُميونةَ باريسَ

وكانت أولَ درسٍ فى الجغرافيَّة

يمتد الوطنُ العربى شمالاً حتى كميونةِ باريسَ

وتمتد نيويوركَ إلى آبارِ النفطِ العربيَّة!

يستطيع ابن جَلُّونَ أن يعرفَ الحزنَ ليلتَه هذهِ
ثم يستأنفَ الحربَ فى الغدِ حتى الظفَرْ!

يتذكر عمرٌ مجلسَنا حول المهدىّ
على سجادة ليلِ القاهرةِ الوردىِّ
وكنا إذ ذاك شبابا
يلعب فى أيدينا الزمنُ كوحشٍ مُتبَنَّى
والمهدىُّ ينادمُنا
ويعلِّمنا فنَّ الهجرةِ بالوطنِ السرىِّ
يقاسمنا الخبزَ الحىَّ
يُساقينا دمَه المسفوحَ غداً
يكشف ما لم يأتِ كتاباً، فكتابا

هل كان المهدىُّ يرى صاحبَه الشاعرَ منفياً

يسأل عنه فى «السانْ جرمان»

وفى الدار البيضاءِ

ولا يجد جوابا!

هل كان يراه وقد صار غُرابا

يبكى القتلى من إخوتهِ

ويودع كل نهار أصحابا!

يستطيع ابنُ جلُّونَ أن يخلع الآنَ ثوباً

وأن يتجلَّى لنا فى الثياب الأُخَرا

يتذكر عمرٌ خارطةً للوطن العربىِّ

مُرصَّعة باللؤلؤ والياقوتِ

مزيَّنة بالأعلام العشرينَ

مطعَّمة بالفضة والذهبِ

تتفجر منها واحاتٌ خُضرٌ

يتهادى فيها الطاووسُ
ويرعى فيها البقرُ الوحشىُّ عناقيدَ العنبِ
وأرى عمرَ الآنَ،
يمزِّق تلك الخارطةَ الوهمَ،
ويبكى من غَضبِ
أعلامٌ! أم خِرقٌ من عارٍ!
خنتم كلمات المهدىِّ ودنَّستم نَسَبى
أنهارٌ من عسلٍ!
أم تلك دماءُ فلسطينَ
جرَتْ نفطاً فى أمعاءِ التجَّارِ
وكتَّابِ فتاوى الطاغوتِ المنتَخَبِ؟!
وأراه يقود عساكرَه الفقراءَ
ويهبط من فوق السُّحُبِ
ليصحِّحَ خارطةَ الأشياءِ
ويُنصفَ عرباً من عربِ!

السلامُ عليكَ عُمر!

وعليكَ السلامْ

تتألمُ؟

لا! لم يَعُد وقتُهُ!

تتعَّمُ؟

لاَ! لم يحِنْ وقتُهُ!

أنا بين المساءِ وبين السحَرْ

أترددُ مازلتُ بين الشعاعينِ

حتى يعودَ دمى للشروقِ

وتزهِرَ وردتُه فى الحجَرْ!

طيور المخيم

خيمةٌ، وعمودٌ من النارِ

تلك فلسطينُ تطلع ثانيةً فى الجليلْ

عبثاً تقتلون الأجنَّةَ فى باطنِ الأرضِ!

أو تتبعون الغزالةَ فى لُججِ الضوءِ!

أو تُنصتون إلى ما يُسِرُّ بِهِ الرملُ من دمِها السَّلسبيلْ

ما الذى قالت البئرُ للريحِ

والنارُ للشيخ

والناقةُ المستحمَّةُ فى قمر الغورِ للسنديان؟

ومن ألَّفَ الغيمَ والآلَ فى سِدرةٍ

وسقى من أغانى الرعاةِ وقهوتهم حَبَقاً ونجوماً

وأرهف فى الليل ما بين عوسجةٍ ورفيفِ قَطاةٍ

ومَن حمَّلَ الروحَ شهوةَ مَقثأةٍ

تتململ غِبَّ الظهيرةِ نافثةً عِطرها الشبقىَّ العليلْ!

ومَن يغزل الماءَ والضوءَ تحت الرمالِ

وينسج فى الغيبِ سجادةً لفلسطينَ

من مُهجِ الكائناتِ الخفيَّة؟

كيف تركنا المواسمَ فى الأرض؟

كيف تشبثَ فِلذٌ بفلذٍ وجرثومةٌ بشعاعٍ

ومِلنا إلى الشرقِ

حتى فقدنا مواضعَ أقدامِنا فى مدار الفصولْ!

آه!

ما أكثرَ البرتقالَ الذى يحمل اسمَ فلسطينَ

فى طرقات المهاجرِ

لكنه ليس يحمل ما حفظتْهُ الطفولةُ من عطرها الحىِّ!

هل تمنحُ الأرضُ أحشاءها للغزاةِ

وهل يحملُ القاتلُ المتجهِّمُ وجهَ القتيلِ!

خيمةٌ، وعمودٌ من النارِ

تلك فلسطينُ تطلع ثانيةً بعد أيلولَ

تطلع بعد حزيرانَ

تطلع من زمنِ الشهداءِ

وتمتدُّ حتى تلامِسَ من دمِها صبيةً فى المخيَّمِ

لم يشهدوا من فلسطينَ إلا الحنين إليها

وها هُمْ يمدون أجسادَهم لترابِ فلسطينَ قنطرةً

يملأون بأشلائهم هوَّةً

تتحدر بين مُخيَّمهم وسماءِ الجليلِ!

آه يا حَجلاً طائراً خارجَ الأرضِ والوقتِ!

يُفرِخُ ما بين منفىً ومذبحةٍ

ويريد فلسطينَ!

لكنه لا يرى من فلسطينَ

إلا بمقدار ما تخرجُ النارُ من فُوَّهاتِ البنادقِ

حتى تعود به زغباً ناعماً

يتطاير فوق اخضرارِ السهولِ!

لا أُبشِّرُ بالموتِ!

لكنه سيكون حضارتكمْ

أيها القادمون لنا بالتوابيتِ محشوةً بالبنادقِ

لستُ أُبشِّر بالموتِ!

لكنه سيكون حصيدَ محاريثكمْ
ورفيقَ مواليدكم
وضجيعَ نسائكمْ.. الموتُ!
كيف يصير الضحيةُ قاتلَ إخوتهِ
وتحلُّ محلَّ الڤيولينةِ البندقيةُ
تلك فلسطينُ ما بيننا
وحدود فلسطينَ ليست هى النهرَ
إن حدودَ فلسطينَ آخرُ قطرةِ دمٍّ تسيلُ!

غابةٌ من هوادجَ فى الليلِ والأنجمُ البيضُ أجراسُها
شجرُ اللّه، أشرعةٌ من عصورٍ خَلَتْ
تلتقى، والنجوم مصابيحُها
ثم ترسمُ مُفترقاً
وتواصلُ فى الحلمِ هذا الرحيلْ!

وفلسطينُ واقفةٌ وحدها
خيمةً فى العراءِ
تَرُدُّ الجحافلَ عن ملكوتِ التشردِ
من بعد ما فتحتْ لهمُ المدنُ السبعُ أبوابَها
ودعاهم ملوكُ الطوائفِ للصيد والقنصِ
فى الجسدِ العربىِّ الجميلْ!

لِمَ لا يدخلونَ؟
وقد وشَموا ذلكَ الجسدَ المستباحَ بأسمائِهم وعناوينهم
رشقوه براياتهم
رسموا فوقه مُدُناً ومواخيرَ
واقتسموها
ووَلَّواْ عليها المماليكَ من كل عبدٍ خَصِىٍّ ذليلْ!

وأنا

وطيورُ المخيَّمِ

ليس لنا عَلَمٌ!

مِثْلُنا مثلُ رمل الصحارى

ومِثلُ النخيلِ

ومِثلُ فلسطينَ ليس لنا عَلَمٌ!

ولنا ملكوتُ التشرُّدِ

ليس لنا غيرُ هذا الطريقِ الطويل!

باريس . ١٩٧٨/٤/٦

تقاطعات

وتكونُ أمسيةٌ
مطرٌ
كخيط الغزْلِ يقطعنى، وأقطعُهُ
وشوارعٌ تنصبُّ فى جسدى
وأعبرها!
ويكون ضوءٌ يلعب البلَلُ الصقيلُ بهِ
يفرِّقهُ ويجمعه
ويكون نهرٌ يقتفى أثرى
وريحٌ مثقل بالغيم والأصداءِ يدفعنى، وأدفعُهُ
ويكون أنىِّ حين ألقاهُ ... أضيِّعهُ!

باريس. مارس ١٩٧٧

سفـــر

بيننا، يتغيَّر لونُ الشجر
يتوغَّل طيرُ المسافاتِ فى بحرِ هدأتِهِ
عالقاً بالخيوطِ التى تتقاطع فى خضرةِ السهلِ
أو تتوازى
ويتصل البحرُ بالليلِ، ينقص وجهُ القمرْ!

زمنٌ من مطرْ
من رذاذٍ رتيبٍ
يسحُّ بغير انقطاعٍ
أفى الليلِ،أم فى النهارِ

تُرى، كان هذا السفر!

مدنٌ للعبورِ فحسبُ
وأرصفةٌ للصدى المعدنىّ
وفى المدنِ الهامشيةِ ما يوقظ الذكرياتِ
وبين القُرى ومدافِنها شَبَهٌ.
ثَمَّ فى العُشبِ دربٌ
ومتسعٌ لمرور الرياحِ
وبين القرى ومدافنها ينفذُ الضوءُ فى ورق الشجراتِ
ولا يتجسدُ!
بينهما شهوةٌ غيرُ مرئيةٍ
لفحةٌ من بياض الطلاءِ الذى يتردد بين البيوتِ
وبين المقابرِ
مرتجفاً فى مياه النهَرْ!

التفاصيلُ تفقد أسماءَها الآنَ
واللحظاتُ التى سرقتنى انتهت
والذى كان يفصل ما بيننا يختفى
مثلَ نافورةٍ سكتَتْ
ثم نبقى على الطرفَينِ يواجه كلٌّ أخاه ولا يتقدمُ

يا أيُّهذا الجمالُ الذى ظلَّ مُحتفظاً بالصِّبا
أيُّهذا الجمالُ الذى ظلَّ محتمياً بالحجر!

باريس. ١٩٧٧/٥/٢٩

غرفة المرأة الوحيدة

ها هى الآنَ تطرُدُ عنها المدينةَ
تُغلق من خلفِها بابَها
وتضمُّ الستارَ
ثم تُشعلُ مصباحَها فى النهارْ

تلك أشياؤُها
حيواناتُ وَحْدتِها
تشرئِبُّ لها فى الزوايا
وفوق الجدارْ
ثَمَّ موقدُ غازٍ

ومَغسلةٌ

ورفوفٌ لوضع المؤونةِ

منفى صغيرٌ

وفى العُمق ثَمَّ سريرٌ

ومنضدةٌ

قِصصٌ لاجتلابِ النعاسِ

ومنفضةٌ

وشموعٌ صغارٌ

كُلُّ شىءٍ له موضعٌ لا يبارحُهُ

وحضورٌ

له من خُطى الوقتِ خُبزٌ وماءٌ

ومن ظلِّها المتأرجح إغفاءةٌ ودثارٌ

كلُّ شيءٍ له معها شهوةٌ وبكاءٌ
له نُكهةُ الجسدِ المتعوِّدِ وحدتَه
المتأملِ فى ذاتهِ
كلُّ شيءٍ مرايا
لها وجهُها
ولها ما لأعضائِها مِنْ حميميَّةٍ وانكسارْ

ربما عَبَرَتْ فى طفولتها بمكانٍ كهذا
بضوءٍ
وآنيةٍ يسقط الظلُّ منها على مفرشٍ ناصعٍ

ربما استحضَرتْ بالعقودِ المدلاَّةِ، والشمعداناتِ رُوحاً
تعودُ بها لبساتينَ هاربةٍ
لينابيعَ تجرى على أوجهٍ
تترجرج تحت المياه النقيةِ
باسمة فى القرار!

لم أكن أنا

كانت تُكلم غيرى

وتتظر فى وجهه المستعارْ

باريس. ٢٤ إبريل ١٩٧٨

المراثــى

أو

محطات الزمن الآخر

زمنٌ واقفٌ

يتعامدُ فوقَ مدى الزمنِ الأفقىّ

وينأى عن المعدن المتدفِّقِ فى الطرقات المضيئة

كيف يُحسبُ وقتُ الرحيلْ

بعيداً عن الشمسِ، واللحظاتِ الدفيئة

زمنٌ كالشتاءِ

وكان دجاجُ الطفولةِ ينقرنى فى الصباح الندىَّ

على باحةٍ فُرشت بالبقايا التى ذَبُلت من ثمار الفصولْ

زمنٌ كالأفولْ

فى انعقاد الظهيرة،والشمسُ فى السَّمْتِ

كنتُ أرى طائراً

صالباً نفسه فى شباكِ التوهجِ

كنتُ أراقبهُ

فمتى يستفيقُ

ويستأنف الضربَ فى قلب هذا البياضِ المخيفِ

إلى أن يغيبَ

ويكتمل الخطُّ من نقطة البدءِ حتى الوصولْ

زمن كالخطيئة

وأنا لم أزلْ بعدُ طفلاً

وها أنا كهلٌ تتعتعنى الخمرُ

تتكأ فى لحم روحى المذلاَّتِ والسقطاتِ الخبيئة

زمنٌ حاضرٌ مستحيلٌ

كنت أستدرج الضيفَ

أسقيه حتى يبوحَ

ولكنه ظلَّ حتى انتهت خمرتى جامداً

بينما انهرتُ من فوق مائدتى

أتقيأ ما عشتُ من سنواتٍ بذيئةْ!

فى الصباحاتِ تفتح أرضُ المدينةِ أفواهَها

للنساءِ الصغيراتِ

يطفُرْنَ بالأوجه النائماتِ على عجلٍ

لكِ فى سطح باريسَ عشٌّ

كما للعصافيرِ

نافذةٌ

ما الذى تشهدين هنا

غيرَ قرميدِها الأسودِ المنحدرْ

لكِ حبلٌ لنشر مشدَّاتِ نهديكِ

آنيةٌ للزهَرْ

وسريرٌ، ذَكَرا

فى الصباحاتِ يطفُرْنَ كُنَّ على درج السلَّم الكهربىِّ

عصافيرَ مصبوغةَ الريشِ، شائخةً

تستعين على النوم بالعطرِ والتبغِ

نافضةً نُكهةً، لم يزل بعدُ يجترّها جسدٌ

رُكِّب الآن فى آلةٍ مُرعبة

كلَّ يومٍ لهُ هذه التجربة!

اغنية

أنت فاتنةٌ

وأنا هَرِمٌ

أتأملُ فى صفحة السين وجهىَ

مبتسماً دامعا

أنت فاتنةٌ

تبحثين عن الحبِّ

لكننى

أقتفى أثراً ضائعا

كان لابدَّ أن نلتقى فى صباىَ

إذَنْ

لعِشقتُك عشق الجنونِ

وكُنّا رحلنا معا

يهبط الجسدُ الآدميُّ وحيداً إلى القاعِ
يبحث عن نفسه فى المحطاتِ
مزدلفاً فى سراديبَ معتمةٍ
تتداعى به لزمانٍ سحيقٍ
يُوغل الجسدُ الآدميُّ الحزينُ
ويقفز كالقرد من ظلمةٍ فى الطريقِ
إلى ظُلمةٍ
تابعاً أثر امرأةٍ واجهتهُ
فحوَّلَ عينيه عنها
وظلَّ يراقبها فى زجاج النوافذِ
حتى مضت، وهو لا يستفيقُ
إنه يتجاوزُ ميعادَهُ
ثم يدخل معتذراً
خالعاً عنه ما يرتدى
جالداً نفسَه بيديهِ

يمزِّق أعضاءَه ندماً ويقدمها لُقَماً للمعادنِ
نابضةً بالضراعةِ والخوفِ
لكنه فى النهاية ينظر من حولهِ
فإذا هو ملقىً به
فى بدايةِ ذاتِ الطريقْ!
كلَّ يومٍ له هذه التجربة!

كان فِرلين يعشق رامبو
ولينين يسكن قُربَ أليزيا!
ولكننى مُغرمٌ بالسياسةِ والفنِّ
أكثر مما يليق بىَ الآنَ فى دفءِ صدركِ
كم أنتِ عطشى!
وها هو عُرْيُكِ يأخذنى لضفافِ الطفولةِ.
فى أىِّ نهرٍ سبحنا معاً فى الصِّغَرْ!
أىُّ قربى مقدسةٍ بيننا

توقظ الآنَ وردةَ نهدِك فى ذكرياتى

فأشتَمُّ منها الرياحَ التى سكنتنى قديما

وأتبعها لاهثاً فوق صدركِ

حتى يداهَمنى الصحُوُ!

كم أنتِ ظمأى إلى النومِ

لكننى ظامىءٌ للسهَرْ!

مرثية لفيكتور هيجو:

هؤلاء هُمُ
خففِّ الوطءَ، فالأرضُ باليةٌ
والرياح محمَّلةٌ بالسموم

هؤلاء هُمُ
ينشقون الرطوبةَ ممزوجةَ بالكحولِ
فتخضرُّ أوجههُم بطحالبَ تنمو
وتمتدُّ مثلَ أفاعى الجحيمْ

هؤلاء هُمُ
يغزلون الحديدَ قلانسَ حولَ جماجمهم
ثم يصطحبون نساءَهمُ
فى مظاهرةٍ لاعتبار اللواط زواجاً
وقتل المريض بداءٍ مقيمْ

هؤلاءِ هُمُ الآنَ

يمضون فى أنهرٍ متقاطعةٍ للبيوتِ

يمدُّون أيديَهم للحساءِ

ويبتلعون حبوباً مهدِّئةً

ثم يضطجعون إلى التليفزيون

فى وحشةٍ ووجومْ!

فى الأماسىّ يفتتح الباعةُ السودُ فى دفءِ أنفاقِ باريسَ

أعيادَهم

يفرشون بضاعَتهم فى حنايا الممراتِ

أقنعةً

وعقوداً بدائيةً

وثياباً مُعَصْفَرَةً

وتماثيلَ آلهة مسبلاتِ الجفونْ

فى الأماسىّ ينتصبون عمالقةً طيبينَ
يديرون أعينَهم لالتقاط المودةِ من أعين العابرينَ
وهم يفتلون سجائرَهم بأصابعَ سوداءَ ملتذّةٍ
ويَعُبُّونَ من زبدِ البيرةِ المتفجِّر فوق شواربهمْ
ويغنُّونَ فى الدفء مُسترسلين وراءَ النبوءةِ
أوجههُم تتقصدُ حزناً بعيداً
وقاماتهم تتهدَّل من طربٍ وجنونْ!

لىَ وجهٌ كما للقناعِ
فأيّهما هو وجهى
وروحٌ كتعويذةٍ مغلقة
لىَ كلُّ المدينةِ فى السرِّ
عالَمُها الغسقىُّ
وسُلَّمُها اللولبىُّ

وآعضاؤها البضة المرهقة

اشترى لكِ وجهاً كوجهى

وعودى به نتساوَى

وأمنحك الحُبَّ بالنوم

فى دفء غرفتِك الضيقة!

دائماً ستُروَّعُ فى آخر الليلِ بالراحلينَ

وقد تركوا لكَ سُؤَرَ الكُؤُوسِ

رمادَ السجائرِ

آنيةً للغسيلْ!

دائماً ستكون، وقد فرغَ الليلُ، وحدَكَ

منتظراً آخرَالليلِ

جرِّبْ حواليكَ، لن تلمسَ القاعَ

لن تستطيعَ استعادةَ ظللك، وهو يفِرُّ

ويقصر تحت المصابيحِ

ثم يطولّ!

دائماً ستظل تَأَرجَحُ بين الزمانينِ

لن تستطيعَ استعادةَ وجهِ أبيكَ

ولن تتعوَّدَ هذا القناعَ البديلّ!

مرثية لكارل ماركس:

كيف تشتعلُ الثورةُ الآنَ

من غير ثرثرةٍ فى المقاهى

وكيف تكون البناياتُ أعلى من المقصلة!

الفضاءُ اختفى

والمكانُ له الآن سبعةُ أزمنةٍ

والنهاراتُ أقصرُ مما يحدِّث عنها العجائزُ

والحافلاتُ تسدُّ طريقَ مواكبنا المقبلة

ولكَ الآنَ أن تستريحَ

فإن المقاصلَ صارت مطابخَ آليَّةً

والتماثيلُ يُلقى لها بالنقودِ

فُتمسك أعضاءَها وتبولُ نبيذاً!

تُرى،

كيف تشتعل الثورةُ الآنَ

فى هذه الجنَّةِ المهزلة!

كان لى ذات يومٍ قميصٌ من القطنِ

ألبسه أنا والريحُ

كانت سماءٌ تدغدغ ظهرى

وشمسٌ تلاعبنى بالمرايا

ولى - كانَ - أن أجرَحَ الأرض باسمى

وأشهدَ عبر رؤوس النخيلِ

منزلاً وصبَايا

يرطِّبنَ بالماءِ باحتَهُ

ويهيِّئنَ آلةَ عرسٍ

تعاودنى، بعد أن تختفى الشمسُ، أصداؤُه

متقطعةً فى الحقولِ

كان لى أصدقاءٌ كثيرونَ

ماتوا، أوانتحروا فى الصِّبا

أو لعلى أنا الميتُ الذاكرُ الآنَ أوجهَهُمْ
تتعانق راضيةًفى حدائق أيامِنا
بينما أتقلَّبُ تحت دخانٍ بطىءٍ ثقيلْ!

كيف تجتمعُ الأزمنة
بينما هى تهرب من يدنا
ثم تسقط فى خارج الأمكنة!

مرثية لكامل عبدالغفار:

لِمَ كنتَ جميلا؟

لِمَ أغويْتنى؟

لِمَ ألبَسْتَنى بُردةَ الحُلم فى صِغَرى

ووصفتَ لىَ المستحيلا؟

لِمَ أحبَبْتَنى!

ثم صالحتَ بينى وبين سواكَ

وودَّعتنى

واحترفتَ الرحيلا!

أنتَ وحدَك من يُنقذ الحُلمَ

لو زُرْتَنى!

آهِ لو زُرْتَنى، وجلستَ قليلا

ثم عاودْتَ هذا الرحيلا

مُنشداً بدلاً أن تقولا!

عُدّتُ من رِحلتى وقد انصرَم الصيفُ، أو كادَ
أدخل باريسَ وحدى
بلا صاحبٍ أو دليلّ!
عدتُ تدخلُ سيارةٌ بىَ من جانب النهرِ
تحت الغصونِ التى تحملُ الآنَ آخرَ أوراقِها
والتى تتوالى علىَّ
وتُدّرجُنى فى خطوطٍ من الظلّ والشمس
تزحفُ بالعرضِ، صاعدةً جسدَ المعدنِ المتدفّق بى
ثم ترتدّ للخلّفِ
صاعدةً بعدها غيرُها
متدافعةً،
كالمياه التى غمرَتّ جسداً طافياً
أو كأشرطةِ المومياءِ
وعبرَ الزجاجِ الصقيلّ
يلمع السينُ كالنصلِ تحتى

ويمضى

كأنى أخيراً أعود إلى مُستَقرٍّ

ويمتصُّ إيقاعُه المتلاحقُ ظِلِّى النحيلْ

وَغَداً!

سوف تضربُ نافذتى طيلةَ الليلِ أجنحةُ المطرِ المتوحِش

ناعقةً فوقَ رأسى

وتستأنف الريحُ ما بدأت من عويلْ!

باريس ـ ١٩٧٨/٤/٢٤

أشجار الأسمنت

صدرت الطبعة الأولى عن «مؤسسة الأهرام» القاهرة، عام ١٩٨٩
الطبعة الرابعة . القاهرة ٢٠٠٣

مرثية للعمر الجميل

طللية

كان الحنينُ مَدًى عَذْباً، وكان لنا
من وجهها كوكبٌ فى الليل سيَّارُ
هذا دخانُ القُرى، مازال يتبعنا
وملِءُ أحلامنا زرعٌ، وأجنحةٌ
وَصِبْيةٌ،
وطريقٌ فى الحقولِ إلى الموتَى
وصَبَّارُ
فملتقى الأرضِ بالأفقِ الذى اشتعلت
ألوانهُ شفقاً،
فالقاطراتُ التى غابت مولولةً

فى بؤرة الضوءِ،

فالحُزْنُ الذى هَطَلَتْ

علىّ أمْطَارُهُ يوماً

فصِرتُ إلى طيرٍ،

وسافرتُ من حُزنِ الصَّبِىِّ إلى

حُزْنِ الرجالِ، فكُلُّ العمرِ أسفارُ

ياصاحبِىَّ قِفا!

فالشَّمُس قد رجَعَتْ،

ولم تَعِدْ بغَدٍ.

كُلُّ المقاهى انتظارٌ. ساءَ مافَعَلَتْ

بِنَا السنونُ التى تمضى،

ونحنُ على مَوَائِدٍ فى الزوايا،

ضارعين إلى شمسٍ تخلَّلتِ البلّورَ واهنةً

ولامَسَتْ جلدَنا المعتلَّ، وانحسرت

عنَّا إلى جارنا،

فما نَعِمْنا، ولم ينْعَم بها الجارُ

ياصاحِبَيَّ!

أخمرٌ فى كئوسِكما

أمْ فى كئوسكما هَمٌّ وتَذكارُ!

وما الذى تنفعُ الذكرى إذا نَكأَتْ

فى القلب جُرحاً، عَلِمْنا لا دواءَ لهُ

حتى نعودَ،

وما يبدو أن اقتربتْ

أَيَّامُ عودتِنا، والجرحُ نَغَّارُ

هانحنُ نفرِطُ فوق النهرِ وردتَنا
وتلك أوراقُها تنأى، ويأخذها
وراءَ أحلامِنا موجٌ وتيارُ
ياصاحبَىَّ!
أحقًا أنّها وَسِعَتْ
أعداءَها!
وجَفَت أبناءَها الدارُ ؟!
لو أنّها حوصرت حتى النهايةِ،
حتى الموتِ، لو سحَبَتْ
على مفاتِنِها غُلالةً من مياهِ النيلِ،
واضطَجعتْ فى قَاعِهِ!
لو سفَتّها الريحُ فانْطَمَرَتْ
فى الرملِ واندلعَتْ
من كل وردةِ جرحٍ وردةٌ
فالمدى عُشبٌ ونُوَّارُ

هذا دخانٌ قراها يقتفى دَمَنا

ومِلءُ أحلامِنا زرعٌ، وأجنحةٌ

ومِلءُ أحلامِنا ذئبٌ نَهَشٌ لَهُ

نسقيه مِنْ كأسنا الذاوى،

ونسألهُ عنها،

وننهارُ!

باريس - ١٩٧٩م

العودة إلى المنفى

لَمَّا تحرَّرتِ المدينةُ عدتُ من منفاىَ،
أبحث فى وجوه الناسِ عن صحبى،
فلم أَعْثُر على أحَدٍ،
وأدركنى الكلالْ

فسألتُ عن أهلى، وعن دارٍ لنا
فاستغرب الناسُ السؤالْ
وسألتُ عن شَجرٍ قديمٍ،
كان يكتنفُ الطريقَ إلى التلالْ
فاستغربَ الناسُ السؤالْ

وبحثتُ عن نهرِ المدينةِ دون جدوى،

وانتبهتُ إلى رمادٍ نازلٍ

من جمرة الشَّمْسِ التى كانت تميل إلى الزوالْ

وفَزِعتُ حين رأيتُ أهلَ مدينتى

يتحدثون بلكنةٍ عجماءَ متجهين نحوى،

فابتعدتُ،

وهم أمامى يتبعون تراجعى بخطًى ثِقَالْ

حتى خرجتُ من المدينة مُثقلاً بحقائبى

وانهرتُ مثل عمودِ مِلحٍ

فى الرمالْ

باريس - نوفمبر ١٩٧٩

مصابيح الشوارع

المصابيحُ هاربةٌ كالطيورِ،
ونحن نطاردُها من نوافذِنا العالية

حين تأخذَنا ضَحوةُ الشمسِ تنأى المصابيحُ منسيَّةً
ثُم تحجُبنا غُرفُ النومِ، نغشى نوافذَها
فتلوح المصابيحُ عندئذٍ
تتقدّم حيث يَحِلُّ الظلامُ،
وتأخذُ وقفتَها تحتنا متألقةً زاهية

فى الليالى الدفيئةِ يأتى السكارى،
فيستأنسونَ المصابيحَ،
لكنهم يرحلونَ، وتبقى
تضىءُ لأنفسِها الطُّرق الخالية

وَهْىَ فى المطرِ المتدفِّقِ تركضُ عاريةً تستحمُّ،
وتُرخى جدَائِلها الشاتية
حُزَمًا من نِصالٍ مدبَّبةٍ،
تتناسل فى الريح مائلةً،
ثم ترتدُّ فوقَ الحجارِ شظايا
تفورُ على بِرَكِ الضوءِ هائجةً ضارية

والمصابيحُ فى غبشِ الفجرِ،

تنزف أضواءها الباقية

خَرزاً

يتَحدَّر مُتَّئِدًا

كدموع المهرِّجِ،

مختلطاً بالبياضِ،

وبالحُمرة القانية.

باريس. نوفمبر ١٩٨١م

الشىء

يبزغُ الشىءُ،

فى الحُلمِ، أو فى الحقيقةِ،

بعد غيابٍ طويلْ

ويفاجئُنا بتفرُّدِهِ،

وهو مُلقًى،

وقد نبت العُشْبُ من حَوْلِهِ،

وتوحَّشَ فيه زمانٌ جميلْ

ربّما ظهر الشيءُ فى الأمسياتِ،
كما يظهر النورسُ المتَشَرِّدُ من آخرِ الأفقِ،
يضربُ فى حُلمِنا بجناحٍ،
ويمسحُ أوجُهَنا برذاذِ الفصولْ
أو يفاجئُنا فى النهارِ،
ينِدُّ بجانبِنا، كالعظاية،
يُفزعنا ببريقِ العيونِ،
ويملأ أطرافَنا بالذهولْ

وَهْوَ يُوجدُ إذْ نختفى نحنُ،
ثم يغيبُ،
ويرجع من نقطةٍ فى الأفولْ
نازلاً فى المكانِ الذى انسحَبَتْ عنهُ
أقدامُنا المستريبةُ،

يَنسِجُ وقتاً خفياً،

ويسكنُ شَرنقةً من شعاعٍ ظليلٍ

حائطٌ،

أو بقايا على شاطىءِ البحرِ،

أو صورةٌ تتهدّجُ فى الذكرياتِ البعيدةِ،

أو قد تكونُ المدينةُ هاربةً من وراءِ المسافرِ،

أو مُتوجِّهةً نحوه فى الوصولْ

وَهْوَ باقٍ

ونحنُ نَزولْ!

باريس - ١٩٨١/١٠/٣١م

أغنية للقاهرة

صُنْتُ نفسى عمّا يدنّسُ نفسى ... وتَرَفَّعتُ عن جَدَا كُلّ جِبْسِ

البحترى

اختلافُ النهارِ والليلِ يُنسِى ... اذكُرا لى الصبُا وأيّامَ أُنْسِى

شوقى

هذه ريحُها . كأَنَّ رحيلى

كان حلماً،

وعودتى اليومَ صحوى

هذا النهارُ نهارى

وهذه الشمسُ شمسى!

شجرٌ فى دمى يجيشُ،

صباحاتُ خريفٍ من أوَّلِ العُمرِ

مغسولةٌ بطَلٍّ،

ومنقوطةٌ بسربٍ مِنَ الطير،

وآسٍ

فى الضِّفتين، ووَرْس

ووجوهٌ تَتَابَعَتْ فى مداراتِها، تُنَادِى،

أناديها

ولكنها تواصل معراجَها القصىَّ وتذوى

بين الأسى، والتأسِّى

علَّلانى بوقفةٍ!

[هنا كان حسن فؤاد]

كان يسخو على السجونِ

بأيّامهِ الجميلةِ،

يعطى الوجوهَ سمتاً وأسماءً،

ويعطى الأشياءَ خُبزاً وماءَ

ويردُّ الفضاءَ للناسِ، يبّنيهِ منزلاً،

ويُشيعُ الدفءَ فيهِ، والأُلفةَ الخضراءَ

وله الطمىُ، والجنائنُ، والنيلُ،

له الفجرُ، والشوارعُ، والعيدُ،

له مولدُ النبّى، وشَمُّ النسيمِ،

ينهلُ منها، ويمنحُ البسَطاءَ!

[وهنا كان صلاح جاهين]

ذلك الطفلُ!

كان يمشى بكفّيه فى المدينةِ والقاموسِ

تنهضُ من موتها الكلماتُ

وتستعيدُ صباها

كلماتٌ، هى البواكيرُ من كل نُطفةٍ

وهى الوردةُ أُولى الأشياءِ، أُولى الأغانى

كلماتٌ من المدينةِ،

من تحتِ سورِها، شُرُفاتُ

شُرفاتٌ تزيّنتْ يومَ أن جاءَ،

نساءٌ أسلمنَه قلعةَ الروح،

وأطفالٌ حواليه، صبِيّةٌ وبناتُ

ذلك الطفلُ

كيف ماتَ؟

رأى الكِلْمةَ اللعينةَ تتسلُّ من القاموسِ للحُلْمِ
فاستراحَ إلى الصمتِ،
وأطفالٌ آخرون غُواةٌ
طلبوا الموتَ فى الصباحِ، وماتوا!

شجرٌ فى دمى يَجيشُ،
نسيمٌ من أخريات الليالى
فيه شمسٌ زرقاءُ، فُلٌّ قديمٌ
لم يزل فى دمى يفوحُ،
وكُنا
أنا والقاهرةُ الوجَه والمرايا
خلعنا أشباهنا،
ودخلنا الزمانَ نُصبحُ فى عمرنا الجميل ونُمسى

علَّلانى بوقفةٍ!

[هنا كانت قهوة عبدلله، ومتحف الفن

الحديث، وإيزافيتش، ودار الأوبرا ..]

وهنا كانت ليلتى، وسريرى

دهشتى الأولى، واعترتنىَ موسيقى

اعترانى منها بكاءٌ،

وكانت

تلمُّ ما فَرَطَتْهُ مِنِّى يداها

وتتهلُّ فوق جذعى رؤاها

كنت وحدى،

وكان ثمَّةَ موسيقى تنتهى

وأنا بين برزخ، وعبورٍ

وغيبةٍ، وحضورٍ

زمنٌ يلتقى منازلَه الأولى،

فلا يدرك منها

إلا طللولا، طللولا

أتراني بادلتُ حلماً بحلمٍ

ووصلتُ اغتراب يومٍ بأمسٍ؟

يارفيقىّ! بصِّرَانى

هل مدينةُ عادٍ

وعليها دمٌ حميمٌ ينادى

والموت يعصف عصفا!؟

نهرٌ مُهَانٌ

وأيامٌ دخانٌ

وسماءٌ مرشوقةٌ بالأكاذيبِ،

والملوكُ طغاةٌ

يمشون فى الناس خسفا

يارفيقَىَّ!

فانشرا على البلاد قميصى

وأديرا على المنازل كأسى

« وطنى!

ماشغلتُ عنهُ»،

وما بعت دماءً

«صُنت نفسى

عما يدنِّس نفسى»

فاكشفى هذه السحابةَ عن وجهك النَّقِى،

أنا العاشق المقيمُ،

مُغنِّيكِ؟

حملت الاسمَ العظيمَ،

ولم أرحل سوى فيكِ،

فهل آن أن نفىءَ لظلٍّ

وننجلى بعد لَبسٍ؟

أصدقائى همو همو

وسواهم كما عَلِمتِ،

ولن أمزج الطهورَ برجسٍ

ويدى فى يد التى خبّأتنى فى صدرها

وبَنَتْ لى

من سِرِّها فى المنافى قصراً

وأورت سنانى

ونوّرت لَى حبسى

وجهها مُقبلٌ،

رفيفُ يمامِ

والنجمتانِ من الحزن اخضلّتا بغمامِ

ويداها ممدودتان تقرآن جبينى

وتأخذان برأسى

وجهها مُقبلٌ

أرى الأرض تمشى فى سماء قريبةٍ

وعليها من كل ماأخرجته حشاها

أممٌ تمشى،

وأعلامٌ أراها

كما يكونُ إذا أمطرت سماءٌ،

فهزَّت أرضاً،

ونوّرت الأُفْقَ، وأبقت على الغصون نداها

وكأنّ النشيدَ يقبل من صمتٍ،

ويهتزُّ ناحلا،

ثم يعلو على الشفاهِ، ويعلو

بعد ارتجافٍ وهمسٍ

يارفيقَىَّ!

فانشرا على البلاد قميصى

وأديرا على المنازلِ كأسى

وأديرا على المنازلِ كأسى!

القاهرة ١٨/٩/١٩٨٧م

أشجار الأسمنت

يُقبل الوقتُ ويمضى
دون أن ينتقل الظلُّ،
وهذا شجرُ الأسمنت ينمو
كنبات الفِطْرِ،
يكسو قشرةَ الأرضِ،
فلا موضعَ للعشبِ،
ولامعنى لهذا المطرِ الدافقِ،
فوق الحجرِ المصمتِ،
لايُنبت إلا صدأً
أو طحلباً دون جذورْ!

تُقبل الريحُ وتمضى

دون أن تعبر هذا الصمتَ،

أو تَقْوى على حمل استغاثات القرى

والسفنِ الغرقى،

وهذا شجرُ الأسمنت فى كل مكانٍ

يتمطّى، ويخورُ

كالشياطينِ،

ويصطاد العصافيرَ التى تسقط كالأحجارِ،

فى أجهزةِ الرادارِ،

أو تشنق من أعناقها الزُّغب،

على أسلاكِ آلات استراقِ السَمعِ،

فى تلك السموات التى نعرف من شرفاتنا

أنِ العصافير تموت الآن فيها

حينما يرتطم السربُ،

فتهتزُّ قرونُ المعدنِ الوهّاجِ فى الضوءِ الأخيرْ!

يقبل الليلُ ويمضى
دون أن نشبعَ من نومٍ،
وهذا شجرُ الأسمنت يلتفُّ علينا.
والمواليدُ الذين اعتاد آباؤهم الصمتَ
يجيئون قصارا
ناقصى الخلقةِ،
لايخرج من أفواههم صوتٌ
ولاتتمو خِصاهم.
والنفاياتُ التى تلفظها الشهوةُ فى كل صباحٍ
سأماً، لاشَبَعاً
تُوضع أكداساً على الأبوابِ،
والآلاتُ تلقى غيرها زُبدا، وخَمّراً
فى النهيرات التى تُفضى إلى الباعةِ،
والأرض تدورُ!

باريس - ٢٠/٣/١٩٧٩م

طـردية

إلى

عبدالرحمن منيف

هـو الـربيـعُ كـان،

واليومُ أَحَدٌ

وليس فى المدينةِ التى خَلَتْ

وفاح عطرُها، سوایَ،

قلتُ.. أصطادُ القطا

كان القَطا يتبعنى من بلدٍ إلى بلَدْ

يحُطّ فى حلمى، ويشدو

فإذا قمتُ شَرَدْ

حملت قوسى،

وتوغلتُ بعيداً فى النهار المبتَعِدْ

أبحث عن طيرِ القطا

حتى تشممت احتراق الوقتِ فى العشبِ،

ولاح لى بريقٌ يرتَعِدْ

كان القطا

ينحلُّ كاللؤلؤ فى السماء،

ثم ينْعَقِدْ

مقترباً،

مُسترجعا صورتَه من البدَد

مُسَّاقِطًا،

كأنما على يدى

مرفرفاً على مسارب المياه، كالزَّبَدْ

وصاعداً بلا جَسَدْ

صوّبتُ نحوهُ، نهارى كُلَّهُ،

ولم أَصِدْ

عدوتُ بين الماءِ والغيمةِ،

بين الحلم واليقظةِ،

مسلوبَ الرشَدْ

ومُذ خرجتُ من بلادى.. لم أَعُدْ!

باريس - ١٣/٥/١٩٧٩م

خمرية

الأصدقاءُ الحميمونَ أقبلوا

فى ثيابٍ جديدةٍ

من بلادٍ بعيدةٍ

وقبورِ

ساقوا سماءً إلى البهو من دُخانٍ

وشدّوا

نجومَها بخيوطٍ

ورفرفوا كالطيورِ!

بعيدةٌ كأسُنا الأولى،

والوجوهُ عليها من النهارِ انطفاءاتٌ،

والمدينة ضمّت أسواقَها

وتهاوت

تحت الزجاجِ المطيرِ

بعيدةٌ هذه الكأسُ، والنهارُ بعيدٌ

وعن يمينٍ بساتينُنا التى لانراها

لما ركِبْنا عليهم أسوارَها، ودخلنا

كانت هناك تلالٌ من خالص التِّبرِ،

كانت من النساءِ عذارى

كلؤلؤ منثورِ

ورُبَّ ظَبْىٍ غريرِ

دعوته لسريرى!

وكان ثَمَّ رُفاتٌ

يسيل بين محطات أَدْبَرتْ

ومحطاتٍ أَقْبلتْ

وجسورٍ

ولات حين نُشُورِ!

مَن يُنزِل الغيم؟

لى فيه وردةٌ

أزهرت وحدها هناكَ، وأبقت

جذورَها راعياتٍ

فى جسمِىَ المهجورِ!

بعيدةٌ هذه الكأسُ، مثلَ شمسٍ شتائيةٍ

تدورُ، وتفترُّ عن سنًى مَقْرورِ

ونحن بين المرايا

نعشو لها بمهيضٍ،

من الجناحِ، كسيرِ.

محاصرين بأشباحنا،

نبادلها الكرَّ والفرارَ،

إلى أن مضى الزمانُ فقمنا

وانسلَّ كُلٌّ لمثواهُ فى الظلامِ الأخيرِ!

الأصدقاءُ الحميمون أقبلوا

فى ثيابٍ جديدةٍ

من بلادٍ بعيدةٍ

وقبورِ

ساقوا سماءً إلى البهوِ من دخانٍ

وشدّوا

نجوها بخيوطٍ

ورفرفوا كالطيورِ!

باريس - ١٩٨٤م

الرجل والقصيدة

إلى
صلاح عبد الصبور

ما حيلتى؟ وخطاىَ أقصرُ من خطاكَ
تروح مستبقاً، فتسبقنى، وتنأى،
ثم لا ألقاك إلا فى نهايات الطريقْ
وعليك من ذكرى المغامرةِ افتضاحٌ فاتنٌ،
وعليك أصواتٌ، وألوانٌ،
قطوفٌ من بواكيرِ الخليقةِ،
أو رؤى مما تزخرف فيكَ ألسنةُ الحريقْ!

وأنت تُبعث من رمادك طِيَّبا

وتعود للمقهى،

فتشرب كأسنا، وتموتُ،

هل هو موتك المنشودُ،

أم موتُ القصيدة مشتهاكَ؟

وكلاكما متبرِّجٌ لرفيقهِ

وكلاكما ذاوٍ، ومنطَفئٌ على طرف السرير،

وأنت تبحث فى صباها، دون جدوى.

عن صباكَ!

خبَّأتُ كنزى فيك، أيّتها الصبيةُ، وارتحلّتُ

علَّمتُ جسمَك لونَ جسمى،

صوتَه الجيّاشَ،

حتى صرتِ لى لغةً، وذاكرةً،

وها أنا مُذْ رجَعْتُ

عارٍ،

أفتِّشُ فيكِ عن وجهى القديمِ،

فلا يطل علىَّ من خلف الحجاب سواك أنتَ!

هى وردةُ الليلِ الفريدةُ،

تصطفى رجلاً، وتمنحه بهاءَ الكُلِّ،

تُسكِنُه سريرتَها، وتُرضعه الخلايا والعروقْ

وهل تُبِيلك منتهاها،

قبل أن تتجابَ عنك وجوهُك الأخرى،

وتدرك منتهاكْ

وأنتَ وحشىٌّ، وعَذْبٌ

كنتَ تُجفل حين توشك أن تنَالَ،

وكنت مشدوداً إلى شىء هناكْ

وكنت تفتتها بحزنك، ثم ترحل هارباً منها،
وتعبر فى فيافى الروحِ من ضيق لضيقٍ
وتعود للمقهى،
فتشرب كأسنا، وتموتُ
هل هو موتُكَ المنشودُ،
أم موتُ القصيدة مشتهاكَ؟

كانت لها كُلُّ الوجوهِ!
وكنتُ أطرق كل ليل مخدعاً،
لأطارد القمر المراوغَ،
صاعدا فى عتمة الشرفاتِ من حَالٍ لحالٍ
نازعاً وجهَ الغريم، ولابساً وجه الصديقِ
وتُطلُّ مثلَ الحلمِ زاهيةً،
فأدعوها إلى كأسٍ، وأتبعها إلى نهر المرايا

نرتدى أحلامَنا الأولى
إلى أن نبلغ الزمنَ النقىَّ،
فلا نخوض، وننتهى،
حتى يداهمنا الشروقُ
فنفرُّ عُريانين، نغرق فى نفايات النهارِ،
ويستحيل جمالُنا كِسرًا على الأبوابِ كاسفةَ البريقُ!

أنكرتُها؟ أم أنكرتنى؟
والنهارُ مخافةٌ
زمَنٌ يُعَرِّينا، وذو الوجهِ الكئيبِ
تسيل بسمتُه على شفتيه سُمًّا،
والطريقُ
لا أمْنَ فيه، ولا رفيقُ!
وأظلُّ منتظراً لقاءَ الليل،

تأتينى إذا دخل المساءُ،

وهزّها ريحٌ من التّذكارِ،

فانفطرت حجارتها حنيناً كنت وحدى من يُحسُّ به

كأنى فى الحجارةِ نبضةٌ،

أو فى نوافذها البعيدةِ ضوءُ مصباحٍ غريقْ

تتحلُّ أصواتُ الشوارعِ، والسخونةُ، والغبارُ

إلى طنينٍ لامعٍ

وتلوح لى هى فوق أشياءِ النهارِ شفيفةً كالمستحمة،

تشرئبُّ إلى اعتناق فضائها النائى

مرفرفةً على السفح العتيقْ

وأنا انتظرتُ مجيئَها، ثُم انتظرتُ

ضيّعتُ وجهى فى الشوارع،

وانتحرَتْ!

الآن ينكسرُ الشعاعُ على المدى
ويرفرف الوجهُ الطليقْ
والآن تبتدئ القصيدةُ،
تخرجُ الأسماءُ عاريةً،
وينفصل الرمادُ عن البريقْ!

ألقاك أين الآن!
والمنفى بعيدٌ، والبلادُ تناقلتكَ.
أأنت فى رجع اليمامْ
إذا ترقرق فى امتدادات الزمرّدِ،،
حيث ينفرط الغمامْ؟!
أم أنتَ فى الطمى الطرىِّ،
إذا تخلّع فى الظهيرةِ عارياً
متعطراً بشذاهُ،

فى الصمت الممزَّقِ بالنَّعيب وبالبغامْ؟!

أم أنتَ فى الطمى القديمِ،

إذا تَفتّتَ تحت أقدام الشموسِ

العابراتِ عليه من عام لعامْ؟!

ها أنت تسبقُ مرةً أخرى،

افترقنا ياصلاحُ، ونحن نشربُ!

نحن من سفرٍ أتينا للِّقاءِ، وكنت تنأى

والشرارةُ فيكَ تزهرُ،

واللوامعُ،

فالطوالعُ،

فالبروقْ

أقمتَ أرضَكَ،

وانتصبت على مجاهلها القصيّةِ غارقاً فى الضوءِ،

تلك قصيدةٌ أولى،

وخلف الظن ثَمَّ قصيدةٌ أخرى،

وبينهما تنام، وتستفيقُ!

باريس . صنعاء ديسمبر ١٩٨١م

الرجل والظل

إلى
عبد الفتاح غبن

يومَ تَركناهُ وسافرنا،
اشترى فى الغَسَقِ النازل خبزًا وشموعًا
ثم عاد وحدهُ،
يجوس فى غرابَةِ البيتِ!

كان العشاءُ حاضراً،
ومقعدانِ،

وأغانٍ كالعطايا ترتقى حوائط الصمتِ

نادى،

فلم نأتِ!

وكانت القاهرةُ الآن طنيناً مضمحلاً

هذه القلعةُ كانت دائما تنهض فى شُبَّاكهِ،

تشبهه مئذنتاها،

وهو يلقى ظلَّهُ فى زَبَدِ الوقتِ

لا بُدَّ أن نطالع المرآةَ،

أو نُصابَ بالجنون والمقتِ!

نادى،

فماردَّ سوى الظلٍّ الذى خَفَّ له

معتدلَ السمتِ

ظِلٌّ رشيقٌ، بارعٌ

أجمل من إبنٍ، ومن بنتِ

نَادَمَهْ

حتى انقضى العامُ،

وعدنا نطرق الباب عليه فبكى

واختار أن يبقى مع الموتِ!

باريس - ١٩٨٥/٩/٢٥م

قطار الجنوب

إلى

أمل دنقل

حين شَقَّت على قلبه المتصدِّعِ رؤياه فينا
أتى لابسًا كفنًا
ومشى فى المدينة يمسح أركانَها
وهى غافلةٌ
متلألئةٌ لاتزالُ
يوم شدَّ إليها الرحالْ
سقطت فى ذراعيه ميتةً
يوم شدَّ إليها الرِّحالْ

يومها كانت الشمسُ تشرقُ، والنهر يركض فى الصيف
ركضَ الغزالْ

كانت الريحُ خضراءَ،
والصيفُ أشقرَ،
والأمهاتُ يدغدغن أطفالَهُنَّ على الشرفاتِ،
وكانت سماءُ المدينة عامرةً بالنجومِ،
وأهراؤها بالغلالْ

وأتى لابساً كفناً.
إنه عرسُهُ العدَمىُّ!
نهايتُه فى الخرابِ الذى انبلَجَتْ منه رؤياهُ!
ها أنتِ لألاءةٌ كالسرابِ،
وشاهقةٌ كالجبالْ
وأنا أتَفرَّس فيكِ،
وأشهد ماتستر الضحكاتُ من الخوف والجوعِ،

أعلم أن المدائنَ تأخذ للموت زُخْرُفَها
فتعالَى ! تعالَ!

هكذا اندلعت فيه رؤياهُ،
صار لها جسداً يتلاشى،
إلى أَنْ تجلَّتْ،
وقد ماتَ، فى ذروةٍ واكتمالْ!

ياقطارَ الجنوبِ الذى يتشرَّدُ فى روحنا كابن آوى،
قطارَ الجنوبِ الذى باعنا فى الشمالْ!
إنّ فى رَحْلنا من ترابِ الطفولةِ قبراً لنا
فأضِعْنا، ولا تقتلْعنا،
لنرجعَ يوماً إلى الأمّهاتِ،
ونُولدَ بعد صبِىً واكتهالْ!

ناحِلاً، يتفيّأ وحشتهُ،

جارحاً، وجريحاً،

ومحتشمًا، وهو يهذى بما لايقالْ

وهو ممتشقٌ ظِلَّهُ فى الزحامِ،

يهشُّ به فى الشوارعِ،

من ضحوة الشمسِ،

حتى تنوسَ عليه المصابيحُ فى أُخريات الليالْ

وحواليه من كائناتِ المدينةِ،

ما استنقذتْ يدُه من أوابدِها

قططٌ ضالّةٌ،

وكهولٌ فُرادى، ينامون خارج أجسادِهم،

نسوةٌ يَتَبرَّجْن فى سكرةِ الموتِ للقادمين،

وأقنعةٌ،

وفُتاتٌ من الرغباتِ الصغيرةِ،

تنبض مثل اليراعاتِ، دون اشتعَالْ

أتُرى كان يُمعن فى الهُزءِ،

وهو يزخرف أنباءَه بالخرافةِ،

وهو يُطامنُ من خوفنا بالمجانةِ،

وهو يحلِّق فى اللحظات،

وما كان يشهد غير المآلْ؟

أم تراه، وقد هالَهُ أن تكون نبوءتُه الحقَّ أنكرها

واستراحَ إلى سِنَةٍ من ضلالْ؟

كان ينشج فى الطرقاتِ،

ويضحك منخطفَ الروحِ،

وهو يرى النذُرَ السودَ طالعةً

ويرى وَشْمَها فى وجوه الرجالْ

أَنا راءٍ قضيباً من النارِ فوق المدينةِ،

يأخذها بالنواصى،

قُرى تعبر النهرَ،

حيث تصير قبوراً مفتَّحةً فى الرمالْ

أَنا راءٍ سنابلَ خضراءَ تأكلهنَّ سنابلُ يابسةٌ

مطرًا من جرادٍ يجىء على شجرٍ من صلالْ

أنَا راءٍ إلى جسدى راجعاً بعد موتٍ طويلٍ،

وقد نَسيتْه شوارعُ لايتذكرها

وأنا كنت أُولمُ منه لها فى السنين الخوالْ

كنت أرسمها صوراً فيهِ،

أفرطه كلماتٍ لها وقوافِيَ،

أمنحه للجسور، التى تتبادله ضفّتاها،

وأطلقه حيث مازال فى الوقت شىءٌ يُطالْ

ياقطارَ الجنوبِ الذى يتشرّدُ فى روحنا كابن آوى،

قطارَ الجنوبِ الذى باعنا فى الشمالْ

إن فى رَحْلِنا من ترابِ الطفولة قبرًا لنا

فأضِعنّا، ولاتقتلعنا،

لنرجع يوماً إلى الأمهاتِ،

ونولَدَ، بعد صبِىً واكتهالْ

جاء فى الوقتِ، ثم اختفى

بعد أن قال فينا كلاماً، وألقى علينا السؤالّ!

باريس - القاهرة - ١٩٨٤/٤/٢٣م

يوتوبيا

إلى
چاك بيرك

فلنقل، نحن هنا أندلسيُّونَ!
فلا نطلب فى الأرض سوى ما يطلب الحُجَّاجُ،
أبناءُ السبيلْ

ولنا من لُغَةِ اللهِ كلامٌ
نتهجّاه على تجعيدة الصخرِ،
ونقراه مع الطيرِ هديلا بهديلْ

واتَّحدنا بالمسافاتِ، وبالوقتِ،

فما عاد لنا بدءٌ، وما عادَ وُصولْ

ولنا البرزخُ، والمعراجُ فينا

واتِّصالُ القدمِ العارى بماءِ البحرِ،

أو بالرملِ عشقٌ وحلولٌ

الصحارى استرجعت فردوسَها

والبحر مِنْ أعلام مَنْ مرُّوا عليه أرخبيلْ

واكتشفنا وطَناً فى زهرة الدِّفلى

ووقتًا صافيا يرشح فى الوديان من كرِّ الفصولْ

ثَمَّ وجهُ اللهِ،

والكونُ الذِى يمتدُ ما بين امرىء القيس إلى لوركا

ومن دِلْفىِ إلى قبر الرسولْ

ولنقُلْ ، إنك شيخُ الوقتِ،

فانهض أيها الشيخُ الجليلْ

آن أنْ يستأنف الأندلسيون الرحيلْ!

باريس . يونيه ١٩٨١م

مطاردة الوجه الهارب

إلى

چورچ البهجورى

سُلَّمُكَ العالى، إلى أين يُؤدِّى؟

درجٌ يصعدُ،

والروحُ تَحنُّ للقرارْ

وسان لويس يرتدى دخانَه الشاتى،

وقبعاتِهِ،

وأنتَ فى لغْو الرذاذِ، والحجارْ

فى برتقالِ الضوءِ تنقل الخطى

فى عبقٍ من النبيذ، والبَهَارْ

فراشَةٌ

تَجْمعُ ما ضيَّعت الرحلةُ من ألوانِها

طِفلٌ قديمٌ

مُبحرٌ فى زهرةِ البشنينِ

ناصبٌ شِبَاكَهُ لأقمارِ النهارْ

تحتكَ موجٌ من كتابةِ الملوكِ،

سَمَكٌ مُقدَّسٌ

وبين أيديك كَراكىٌّ تُناوشُ الفَراغَ بالجناحينِ،

وتقطع المدارَ بالمدارْ

وثَمَّ، فى أيقونةٍ، وجهُ ملاكٍ،

أو جيوكاندا بعينين تفيضان اشتهاءً صامتاً

لا ينطفى له أُوارْ

وليسِ فى الحاضرِ إلا كُتَلٌ من أوجُهٍ خرساءَ،

من حوائطٍ عاليةٍ صمَّاءَ،

رعبٌ حجرىٌّ، وذهولٌ، وانتظارْ

ثورٌ خرافىٌّ يجىءُ كُلَّ ليلةٍ،

ويمشى تحت مصباحٍ جليدىٍّ،

ويمضى

دون أن يتركَ من صورته إلاّ البوارْ

سُلَّمكَ العالى، إلى أين يؤدِّى؟

درجٌ يصعدُ،

والروحُ تحنُّ للقَرارْ

وسان لويس يرتدى دُخانَهُ،

ويمنح الأغرابَ وجهَهُ الجميل المستعارْ

وأنتَ فى لغوِ السلالاتِ وحيدٌ ضائعٌ

تخصِفُ من إِيقاع وقتّينِ على الصمتِ،

وتجبر انكساراً بانكسارْ

كيف تَرى مالا يُرى؟!

وتقنص الرؤيةَ والذكرى مَعًا

وكيف تبنى من دمارْ؟!

الاستعاراتُ غواياتٌ!

ولايُترجم اللذةَ والموتَ سوى اللذةِ والموتِ

وها أنت سُدًى

تعدو وراءَ وجهها الهاربِ خارجَ الإطارْ

بيداءٌ من لونٍ،

شظايا جسدٍ فى مُطلقٍ من عُرْىِ ردفَيْهِ،

ومِن نزوتِه نبضٌ يشعُّ فى الغُبارْ

لاشىء فى اللونِ سوى اللونِ

نبيذٌ غاضَ، والعاريةُ ارتدت ثيابَها

وخَلَّفت فوضى السريرِ، ورطوبةَ الجدارْ!

باريس.١٩٨٦

قصيدة الغسق

إلى
الصبى الفلسطينى الذى
عاد إلى بلاده
فى طيارة من ورق!

نستطيعُ إذنْ أن نطير إليها،
كما طار هذا الصبىُّ النَّزِقْ
نستطيعُ إذنْ أن نُتِمَّ قصيدتَهُ،
نتعلَّمَ رقصتَهُ.
فى سديمِ الغَسَقْ!

الصبىَّ النَّزِقْ
الذى رفَّ كالكروانِ، يُسبِّحُ لله ربِّ الفَلَقْ
والذى حَطَّ يعتنقُ الأرضَ.
أىُّ صبىٍّ جميل!
تهدَّجَ فى جسدِ امرأةٍ، وانْدَفَقْ

نحن فى حاجةٍ لوَرَقْ!
فالقصيدةُ أبسطُ من نقطةٍ فى البياضِ،
القصيدةُ ملحٌ، ونَضْحُ عَرَقْ
وخيوطٌ نَشُدُّ بها ريشَنَا القُزحىَّ،
القصيدةُ موتٌ قصيرٌ يعود بنا لطفولتنا
ويُسَرِّبُنَا فى المساءِ الدَّبِقْ

نحن فى حاجةٍ للهواءِ الذى سيجىء من البحر،
حين يرانا نعاود هذا الأفُقَ
لنسيمٍ خفيفٍ نَشِبٌّ عليه،
وقطعةِ غيمٍ تسير الهوينى بنا،
ثم تهبطَ فى بقعةٍ من شَفَقْ

يا إلهى وهذا الندى كُلُّهُ فى يدىَّ،
وهذا الحبَقْ
والسماءُ التى أنزلتنى تُودِّعنى
والدروبُ تطاوعنى، والنجومُ حَدَقْ
ودمٌ عادَ سيرتَه فى العروقِ الحميمةِ،
وانثالَ إيقاعُه ، واتَّسَقْ

ياإلهى! وإخوتنا الشعراءُ يسيرون من نَفَقٍ لِنَفَقْ
لهمو لغةٌ لاتؤدِّى إلى أفُقٍ
ولهمْ ورقٌ يحترقْ!

باريس ـ يناير ١٩٨٨م

خمس قصائد قصيرة

صباح

هذا الصباحُ يجيءُ من أمسِ
شمسٌ سوى شمسِ الخليقةِ
رفرفت فى يقظتى الأولى،
رفيف فراشةٍ
عادت إلى الركن القديم،
فأيقظت فيه الهباءَ، ونَوَّرَتْهُ،
بينما تلغو الخليقةُ فى تخومِ اليقظةِ الأولى
وتتبع دورةَ الشمسِ!

صباح آخر

رَجّفةٌ فى نسيمِ الصباحِ،
شميمُ الصحارىَ التى انعقد الطلُّ فى رملِها،
حيث يحترق العشبُ
هذا أوانُ البكاءِ على الراحلينْ

غير أن الزمانَ مضى
والذين افتقدناهمُو حين ماتوا
ألفناهمُو ميتينْ!

عـراء

ربَّما أىُّ حنينٍ!

سُمَّتنى عصفةُ، وأنا أحتسى قهوتى

فى العراءِ الحزينْ

الضُّحى شاحبٌ

والمدينةُ مرسومةٌ

من صدًى وطنينٍ!

صمت

ها أنا أحرث الصمتَ،

ها أنذا أُشعل النارَ فى الصمتِ،

أُسَرِّجُ من صافناتِ القوافى

مُهرةً،

وأطاردُ صمتَ الفيافى!

غـزل

أَكُلَّما أوّغَلْتُ فى العمر تزيدين صِبًا

متى إذن لقاؤنا؟

ليلٌ فسيحٌ،

ليس لى فيه سوى غيابكِ الحميمِ أُمًّا وأبا!

القاهرة - سبتمبر ١٩٨٨

منتصف الوقت

إلى

جمال الدين بن الشيخ

كأنيِّ في انتصافِ الوقتِ، حين خرجت من ظِلِّي
يعرّيني فراغٌ عاصفٌ يلتفُّ من حولي
كأني في انتصاف الوقت أُولَدُ، أو أَمُوتُ،
كزهرةٍ تشهقُ في منحدر السيلِ

أقول لهذه الأرضِ البعيدةِ: لاتناديني!
ولا تستعجليني!

لم تزل ريحى تهبُّ،

ولم تزل لى دورةٌ أُكَمِلُها

قبل غروبِ الشمسِ، أو منتصفِ الليلِ

ومايُعجِلُنى؟ لا التاجُ معقودٌ على رأسى

ولا بِنِلوبَ عاكفةٌ على نوّلِى!

خِضَمٌّ من ظلامٍ يعترى روحى

ومن مدن الغيابِ مدائنٌ أوغلتُ فى ظلماتِها

وأكلتُ من مَنٍّ ومن سلوى

وحولى من رمادِ الوقتِ،

من موتاىَ زُوَّارُ

مَصَابيحٌ مُحَنَّطَةٌ

نوارسُ فى المدى الكابى

تخلِّص نفسها منهُ، ولاتقوى

وحولى ساحراتُ الطرفِ، أبكارُ

يُغنِّينَ،

فأُدْنِيهنَّ من ظِلِّىِّ

وأُلْبِسهُنَّ منهُ كل ليلٍ بُردةً،

حتى إذا انتصف الزمانُ رأيتُنى مَحْوَا

خذينى ياقطاةُ،

ورفرفى فى الطَّلْحِ والأَثْلِ

لِدِينى من سرابِك مرةً ثانيةً،

أو بدِّدِينى، واقطعى حَبْلىِ!

أرى بلَداً غريباً،

لم أشاهدْ مثله منفىً، ولا وطنا

ولا أعلم كيف اتخذَتْه أمةٌ سكَنا

أرى ما يشبه الأرضَ،
كأنَّ الأرضَ ماتت فهى فى اليد دمنةٌ خضراءٌ

أرى ما يشبه الغيمَ،
كأُنّ بيارقاً كالعهنِ قادمةٌ من الماضى
أو انَّ عناكباً فى الأفق تنسج من هباءَتِه
نسيجا باليا عَفِنَا

أرى وقتًا يَمُرُّ ولا يمرُّ،
كأنَّ شمساً كُلَّما ولدت نهاراً فى الضحى
أَكَلتَهْ قبل مغيبِها،
عودٌ على بدءٍ، ووقتٌ ينسخ الزمَنَا

أرى مايشبه المُدُنا
طلولٌ من مآذنَ،

من مداخنَ كالزعانفِ فى فِقار بهيمةٍ حجريّةٍ
وأرى سراطينَ الحديدِ تمجُّ أعناقًا،
وتُطلِعُ أوجُهًا وحشيَّةً
وأرى هُلاما فى الشوارعِ نازفاً
يشهق فى أصدافِه الرمليةِ الصفراءْ

تشبَّثْتُ بسارية السفينةِ
وهى تهوى فى دُوار اللُّجَّةِ السوداءْ
إلى أن طوّحتْ بى الريحُ فوق جزيرة الطاغوتِ
كان هناك، لا أحدٌ سواهُ، يطحنُ الصمتا
ويعوى مثلما تعوى الذئابُ، وينفثُ المقتا
وينظر، لايرى من أىِّ شىءٍ غيرَ شِقٍّ واحدٍ،
فهربتُ فيما لايرَى،
حتى بلغتُ مساكنَ الموتى
وناديتُ أبى!

أسلمته الكنزَ الذى أودعَهُ عندىَ،
وارتحتُ على أضلاعِهِ
هل ليلةً؟
هل سَنَةً؟
حتى سمعتُ كأنَّ عاصفةً تُكلِّمنى
وأنِّى أعرف الصوتا
ورفرفت القطاةُ على جبينى،
مُدَّ لى فى ظُلمةِ التابوتِ ضوءٌ،
رحت أصعد حبلَه، وأطالع الوقتا
أقول لهذه الأرضِ البعيدةَ:
أشرقى من عَتْمَةٍ!
وتجسَّدى من كلمةٍ!
وتشرَّدى مثلى!
أقول لها:

لقد متٍّ معى، فابتدئى الآن مَعى

ياوردةً تُزهر فى المَحّلِ

أقول لها: اتبعينى ! لاتنادينى!

ولا تستعجلينى!

إننى أمضى على رِسْلى

ولى شَرطان، ينبلجان يوماً فيكِ،

حينئذٍ يلوح شراعِيَ الضِّلِّيلُ،

أبيضَ، فى غروب الشمسِ أو منتصف الليلِ

وما يعجلنى؟ لا التاجُ معقودٌ على رأسى

ولا بنِلوبَ عاكفةٌ

على نَوْلِى!

باريس - ١٩٨٩/٣/١٠م

الفهرس

القصيدة	الصفحة

مرثية للعمر الجميل

كائنات مملكة الليل

أشجار الأسمنت

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماربيا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة. ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

لا تتمثل المنزلة الرفيعة للشاعر الرائد «أحمد عبدالمعطى حجازى» فى مجرد انتمائه إلى جيل الريادة الذى قاد ثورة الشعر الحر منذ منتصف القرن الماضى، مع أن هذا وحده فيه الكفاية؛ بل تتمثل فوق هذا، فى أنه قد تجاوز الريادة بمعناها التاريخى، إلى نوع من الريادة الفنية، التى جعلته ينفرد بين سائر أقرانه من رواد الشعر الحرفى العالم العربى، برؤية حداثية استغنت بالفن عن الدعاية، و بالشعر عن الشعار؛ فنحن هنا أمام القصيدة بكامل بهائها، نحن أمام الشعر فى حضوره الخالص، بدون ضجيج مفتعل حول القطيعة مع الماضى أو تحطيم الشكل أوتفجير اللغة، وغير هذا من دعاوى أدت بالشعر فى النهاية إلى أن يتنكر لنفسه قبل أن يتنكر لأصوله !.

يضم هذا الجزء ثلاثة دواوين، هى: «مرثية للعمر الجميل» و «كائنات مملكة الليل» و «أشجار الأسمنت».

لوحه و تصميم الغلاف للفنان / ممدوح القصيفي



الهيئة المصرية العا
١٠ جنيهات